الأدب العالمي للناشئين

شارة الشجاعة الحمراء



ستيفن كرين

شارة الشجاعة الحمراء

شارة الشجاعة الحمراء

تأليف
ستيفن كرين

ترجمة
نهير محمد

مراجعة
شيماء عبد الحكيم طه

هنـــداوي

شارة الشجاعة الحمراء

The Red Badge of Courage

ستيفن كرين

Stephen Crane

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٠١٢/٨/٢٦

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة، جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ +
فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: ورود مصطفى، تصميم الغلاف: صفاء حامد.

الترقيم الدولى: ٩ ٣٣٩ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مِنْ أَحْدَاثِ الْحَرْبِ الْأَهْلِيَّةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ

الفصل الأول

شَائِعَةُ قِتَالٍ

اخْتَفَى الْبَرْدُ شَيْئًا فَشَيْئًا عَنْ سَطْحِ الْأَرْضِ، وَكَشَفَ الضَّبَابُ الْمُنْقَشِعُ عَنْ جَيْشٍ يَرْتَدِي جُنُودُهُ الزِّيَّ الْأَزْرَقَ وَيَسْتَرِيحُونَ فَوْقَ التِّلَالِ. عِنْدَمَا اسْتَيْقَظَ الْجُنُودِ اسْتَطَاعُوا رُؤْيَةَ الْمَزِيدِ مِنَ الطُّرُقِ الْمُوحِلَةِ وَالنَّهْرِ، ذَهَبَ جُنْدِيٌّ طَوِيلُ الْقَامَةِ لِيَغْسِلَ قَمِيصَهُ، ثُمَّ عَادَ مُهَرْوِلًا لِيَنْشُرَ خَبَرًا قَدْ سَمِعَهُ.

قَالَ الْجُنْدِيُّ: «سَوْفَ نَتَحَرَّكُ غَدًا، سَنَتَحَرَّكُ نَحوَ أَعْلَى النَّهْرِ، ثُمَّ نَعْبُرُهُ وَنَلْتَفُّ مِنْ خَلْفِهِمْ.»

قَالَ جُنْدِيٌّ آخَرُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ: «لَا أُصَدِّقُ ذَلِكَ، فَقَدِ اسْتَعْدَدْتُ لِلتَّحَرُّكِ ثَمَانِيَ مَرَّاتٍ فِي الْأُسْبُوعَيْنِ الْمَاضِيَيْنِ، وَلَمْ نَتَحَرَّكْ بَعْدُ.»

وَبَيْنَمَا وَاصَلَ الرِّجَالُ نِقَاشَهُمْ حَوْلَ مَا إِذَا كَانُوا سَيَتَحَرَّكُونَ الْيَوْمَ التَّالِيَ أَمْ لَا، ذَهَبَ جُنْدِيٌّ شَابٌّ يُدْعَى هنري فليمنج إِلَى كُوخِهِ لِيَخْلُوَ إِلَى نَفْسِهِ وَيُفَكِّرَ. أَذْهَلَهُ التَّفْكِيرُ فِي احْتِمَالِ نُشُوبِ الْقِتَالِ قَرِيبًا، وَأَنَّهُ سَيُشَارِكُ فِيهِ! سَيَكُونُ وَاحِدًا مِنْ أَهَمِّ الْأَحْدَاثِ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ.

كَانَ هنري يَحْلُمُ طَوَالَ حَيَاتِهِ بِالْمَعَارِكِ وَبِأَنْ يُصْبِحَ بَطَلًا، لَكِنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ قَطُّ أَنَّهُ سَيُشَارِكُ فِعْلِيًّا فِي الْحَرْبِ. هُنَالِكَ فِي وَطَنِهِ، لَمْ يَكُنْ يُصَدِّقُ أَنَّ الْحَرْبَ حَقِيقِيَّةٌ، بَلْ ظَنَّ أَنَّ الْبَشَرَ قَدْ أَصْبَحُوا أَفْضَلَ حَالًا الْآنَ، أَوْ عَلَى الْأَقَلِّ أَكْثَرَ مَيْلًا إِلَى السِّلْمِ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الْمَاضِي، وَمُؤَكَّدٌ أَنَّهُمْ لَنْ يَخُوضُوا غِمَارَ الْحَرْبِ. لَكِنَّ حَرْبًا أَهْلِيَّةً كَانَتْ تَشْتَعِلُ الْآنَ بَيْنَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ، وتِلْكَ فُرْصَتُهُ لِيُصْبِحَ بَطَلًا.

أَرَادَ هنري الانْضِمَامَ إِلَى صُفُوفِ الْجَيْشِ مَرَّاتٍ عِدَّةً، لَكِنَّ وَالِدَتَهُ كَانَتْ تَثْنِيهِ عَنْ ذَلِكَ، كَانَتْ تَسُوقُ لَهُ مِائَةَ سَبَبٍ لِضَرُورَةِ وُجُودِهِ فِي الْمَزْرَعَةِ أَكْثَرَ مِنْ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ. وَأَخِيرًا، عِنْدَمَا ضَاقَ بِالانْتِظَارِ ذَرْعًا، ذَهَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَالْتَحَقَ بِالْجَيْشِ. وعِنْدَمَا أَخْبَرَهَا بِذَلِكَ، قَالَتْ: «فَلْتَكُنْ مَشِيئَةُ الرَّبِّ يَا هنري.»، ثُمَّ وَاصَلَتْ حَلْبَ الْبَقَرَةِ، وَأَضَافَتْ: «احْتَرِسْ، وَاعْتَنِ بِنَفْسِكَ. لَا تَظُنَّ أَنَّ بِمَقْدُورِكَ هَزِيمَةَ جَيْشِ الْمُتَمَرِّدِينَ كُلِّهِ عَلَى الْفَوْرِ؛ فَلَسْتَ سِوَى رَجُلٍ وَاحِدٍ بَيْنَ كَثِيرِينَ آخَرِينَ.»

طَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يَحْتَرِسَ مِنَ الْأَشْرَارِ الَّذِينَ يَسُبُّونَ أَوْ يَفْعَلُونَ أَشْيَاءَ أُخْرَى تَكُونُ سَبَبًا فِي شُعُورِهَا بِالْخِزْيِ مِنْهُ، وَأَضَافَتْ: «لَا أَدْرِي مَا الَّذِي يَجِبُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِهِ أَيْضًا سِوَى أَلَّا تَتَخَلَّى عَنْ وَاجِبِكَ أَبَدًا بِسَبَبِي. وَإِذَا أَتَى وَقْتٌ يَجِبُ أَنْ تُقْتَلَ فِيهِ مِنْ أَجْلِ فِعْلِ الصَّوَابِ، فَلَا تُفَكِّرْ فِي أَيِّ شَيْءٍ يَا هنري إِلَّا فِي فِعْلِ الصَّوَابِ.»

بَلَغَتْ رُوحُهُ الْمَعْنَوِيَّةُ عَنَانَ السَّمَاءِ فِي طَرِيقِهِ إِلَى واشنطن. كَانَتِ الْكَتِيبَةُ كُلُّهَا تَلْقَى مُعَامَلَةً حَسَنَةً لِلْغَايَةِ أَثْنَاءَ سَفَرِهِمْ حَتَّى إِنَّهُ شَعَرَ كَمَا لَوْ كَانَ بَطَلًا حَقِيقِيًّا. بَعْدَ الْعَدِيدِ مِنَ الرِّحْلَاتِ

الشَّاقَّةِ وَفَتَرَاتِ التَّوَقُّفِ الطَّوِيلَةِ، حَلَّتْ شُهُورٌ مِنَ الْحَيَاةِ الْمُضْجِرَةِ دَاخِلَ أَحَدِ الْمُعَسْكَرَاتِ. فِي الْمُعَسْكَرِ، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ صِرَاعٍ مَعَ الْمَوْتِ. كُلُّ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ الرِّجَالُ هو مُحَاوَلَةُ الِاحْتِفَاظِ بِدِفْءِ أَجْسَامِهِمْ وَالْمُوَاظَبَةُ عَلَى التَّدْرِيبِ مِرَارًا وَتَكْرَارًا، وَكَانَ كُلُّ مَا يُفَكِّرُ فِيهِ هنري فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ هُوَ الْمَعَارِكَ الْقَادِمَةَ.

لَمْ يَهْتَمَّ هنري كَثِيرًا بِطَبِيعَةِ الرِّجَالِ الَّذِينَ سَيُحَارِبُهُمْ؛ إِذْ كَانَتْ هُنَاكَ مُشْكِلَةٌ أَخْطَرُ، وَهِيَ أَنَّهُ أَرَادَ التَّأَكُّدَ أَنَّهُ لَنْ يَفِرَّ مِنْ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ. لَمْ يَكُنْ فِي حَاجَةٍ إِلَى التَّفْكِيرِ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ مِنْ قَبْلُ، لَكِنَّ مَعْرَكَةً سَتَقَعُ حَقًّا، وَهُوَ يُدْرِكُ أَنَّهُ رُبَّمَا يَفِرُّ مِنَ الْمَيْدَانِ. لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ فِيمَا يَخُصُّ الْحَرْبَ.

بَعْدَ وَقْتٍ قَصِيرٍ، دَخَلَ الْجُنْدِيُّ طَوِيلُ الْقَامَةِ إِلَى كُوخِهِ وَتَبِعَهُ الْجُنْدِيُّ عَالِي الصَّوْتِ الَّذِي كَانَ قَدْ خَالَفَهُ الرَّأْيَ سَابِقًا، وَكَانَا لَا يَزَالَانِ عَلَى خِلَافِهِمَا. كَانَ الْجُنْدِيُّ طَوِيلُ الْقَامَةِ يُسَمَّى جيم كونكلن، وَالْجُنْدِيُّ عَالِي الصَّوْتِ يُسَمَّى ويلسون.

قَالَ جيم وَهُوَ يَدْخُلُ الْكُوخَ مُلَوِّحًا بِيَدَيْهِ: «هَذَا صَحِيحٌ، يُمْكِنُكَ أَنْ تُصَدِّقَ ذَلِكَ أَوْ لَا، كُلُّ مَا عَلَيْكَ فِعْلُهُ هُوَ أَنْ تَجْلِسَ وَتَنْتَظِرَ. سَتَعْرِفُ عَمَّا قَرِيبٍ أَنَّنِي كُنْتُ مُحِقًّا.»

قَالَ ويلسون: «حَسَنًا، إِنَّكَ تَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْعَالَمِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

رَدَّ جيم فِي حِدَّةٍ: «لَمْ أَقُلْ إِنَّنِي أَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْعَالَمِ.» وَبَدَأَ يَجْمَعُ مُتَعَلَّقَاتِهِ دَاخِلَ حَقِيبَةِ ظَهْرِهِ.

رَاقَبَهُمَا هنري فِي قَلَقٍ، وَفِي النِّهَايَةِ سَأَلَ جيم: «أَمِنَ الْمُؤَكَّدِ إِذَنْ أَنَّنَا بِصَدَدِ إِحْدَى الْمَعَارِكِ يَا جيم؟»

رَدَّ جيم: «بِالطَّبْعِ، هُنَاكَ مَعْرَكَةٌ، انْتَظِرْ فَقَطْ حَتَّى الْغَدِ، وَسَتَرَى وَاحِدَةً مِنْ أَكْبَرِ الْمَعَارِكِ عَلَى الْإِطْلَاقِ. انْتَظِرْ فَحَسْبُ.»

تَحَدَّثَ جيم عَنِ السَّرَايَا الْأُخْرَى وَعَنِ الْمَعَارِكِ الَّتِي سَمِعَ عَنْهَا، ثُمَّ سَأَلَهُ هنري عَمَّا قَدْ تَفْعَلُهُ كَتِيبَتُهُمَا.

قَالَ جيم فِي هُدُوءٍ: «أَظُنُّ أَنَّهُمْ سَيبلُونَ بَلَاءً حَسَنًا مَا إِنْ يَحْتَدِمُ الْقِتَالُ. يَسْخَرُ مِنْهُمُ الْجَمِيعُ لِأَنَّهُمْ حَدِيثُو الْعَهْدِ بِالْقِتَالِ، لَكِنَّهُمْ سَيُبْلُونَ بَلَاءً حَسَنًا.»

سَأَلَهُ هنري: «هَلْ تَظُنُّ أَنَّ أَيًّا مِنَ الصِّبْيَةِ سَيَلُوذُ بِالْفِرَارِ؟»

قَالَ جيم: «رُبَّمَا يُقْدِمُ قَلِيلُونَ عَلَى ذَلِكَ؛ فَتِلْكَ الْفِئَةُ مَوْجُودَةٌ فِي كُلِّ كَتِيبَةٍ، خَاصَّةً عِنْدَمَا يُشَارِكُونَ فِي الْقِتَالِ أَوَّلَ مَرَّةٍ. لَا يُمْكِنُكَ الْمُرَاهَنَةُ عَلَى شَيْءٍ، لَكِنْ أَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ سَيُقَاتِلُونَ أَفْضَلَ مِنَ الْبَعْضِ وَأَسْوَأَ مِنْ آخَرِينَ.»

سَألَهُ هنري: «هَلْ فَكَّرْتَ أنَّكَ أنْتَ نَفْسَكَ رُبَّمَا تَفِرُّ مِنَ الْمَعْرَكَةِ يَا جيم؟» ثُمَّ ضَحِكَ كَمَا لَوْ كَانَ يَمْزَحُ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ أَنْ يُغْضِبَ صَدِيقَهُ.

قَالَ جيم: «حَسَنًا، فَكَّرْتُ فِي أَنَّ الْمَعْرَكَةَ قَدْ تَحْتَدِمُ كَثِيرًا، وَإِذا فَرَّ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الفِتْيَةِ، فَسَأَفِرُّ أَنَا الْآخَرُ، وَعِنْدَمَا أَفْعَلُ، سَأَجْرِي بِأَقْصَى قُوَّتِي. لَكِنْ إِذَا صَمَدَ الْجَمِيعُ وَقَاتَلُوا، فَسَوْفَ أَصْمُدُ وَأُقَاتِلُ. أُرَاهِنُ عَلَى ذَلِكَ.»

شَعَرَ هنري بِالسَّعَادَةِ لِسَمَاعِهِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، فَقَدْ ظَنَّ أَنَّ جَمِيعَ الرِّجَالِ الْآخَرِينَ مِمَّنْ لَا يَمْتَلِكُونَ الْخِبْرَةَ يَثِقُونَ بأَنْفُسِهِمْ تَمَامَ الثِّقَةِ، أَمَّا الْآنَ وَبَعْدَ أَنْ عَرَفَ الْحَقِيقَةَ، شَعَرَ بِأَنَّهُ فِي حَالٍ أَفْضَلَ قَلِيلًا.

الفصل الثاني

مَخَاوِفُ هنري

فِي الصَّبَاحِ التَّالِي، اكْتَشَفَ هنري أَنَّ جيم كَانَ مُخْطِئًا؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ قِتَالٌ فِي هَذَا الْيَوْمِ. سَخِرَ كَثِيرٌ مِنَ الرِّجَالِ الْآخَرِينَ مِنْ جيم، حَتَّى إِنَّهُ دَخَلَ فِي عِرَاكٍ بِالْأَيْدِي مَعَ رَجُلٍ مِنْ «تشاتفيلد كورنرز». تَشَاجَرَ ويلسون — الْجُنْدِيُّ عَالِي الصَّوْتِ — هُوَ الْآخَرُ، وَكَانَ عَلَى الْمُلَازِمِ فَضُّ ذَلِكَ الشِّجَارِ. فِي غُضُونِ ذَلِكَ، كَانَ هنري لَا يَزَالُ غَيْرَ وَاثِقٍ مِنْ نَفْسِهِ.

ظَلَّ هنري أَيَّامًا يُفَكِّرُ فِي هَذَا الْأَمْرِ. كَانَ لَا يَزَالُ قَلِقًا مِنْ أَنَّهُ سَيَفِرُّ مَعَ أَوَّلِ بَادِرَةٍ لِلْقِتَالِ. وَأَخِيرًا قَرَّرَ أَنَّ الطَّرِيقَةَ الْوَحِيدَةَ لِإِثْبَاتِ قُدْرَاتِهِ هِيَ دُخُولُ سَاحَةِ الْوَغَى. عَلَيْهِ أَنْ يَنْتَظِرَ لِيَرَى هَلْ سَيُحَارِبُ حَقًّا أَمْ لَا؛ لِذَلِكَ، ظَلَّ يَنْتَظِرُ الْفُرْصَةَ، وَحَاوَلَ أَنْ يُقَارِنَ نَفْسَهُ بِرِفَاقِهِ.

شَعَرَ هنري أَنَّ حَالَهُ أَفْضَلُ بِكَثِيرٍ عِنْدَمَا نَظَرَ إِلَى جيم الَّذِي لَمْ تَبْدُ عَلَيْهِ أَيُّ أَمَارَةٍ لِلْقَلَقِ، وَالَّذِي بَدَا وَاثِقًا من نَفْسِهِ، وَكَأَنَّهُ لَا يُوجَدُ شَيْءٌ يَفُوقُ قُدْرَاتِهِ. عِنْدَمَا تَأَمَّلَ هنري حَالَ الْجُنُودِ الْآخَرِينَ، كَانَ يَظُنُّ أَحْيَانًا أَنَّهُمْ جَمِيعًا أَبْطَالٌ. مُؤَكَّدٌ أَنَّهُمْ جَمِيعًا أَفْضَلُ مِمَّا قَدْ يَأْمُلُ هُوَ يَوْمًا أَنْ يَكُونَ. لَكِنْ أَحْيَانًا أُخْرَى كَانَ يَجِدُهُمْ قَلِقِينَ وَمُتَرَدِّدِينَ مِثْلَهُ تَمَامًا.

فِي صَبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ، كَانَ هنري يَقِفُ بِصُحْبَةِ أَفْرَادِ كَتِيبَتِهِ، وكَانَ الْجَمِيعُ يَتَهَامَسُونَ وَيُخْبِرُ أَحَدُهُمُ الْآخَرَ مُجَدَّدًا بِالشَّائِعَاتِ الْقَدِيمَةِ. كَانُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّ الْقِتَالَ أَصْبَحَ وَشِيكًا. وَفِي الظُّلْمَةِ الَّتِي تَسْبِقُ طُلُوعَ النَّهَارِ، كَانَ لِبَاسُهُمُ الْعَسْكَرِيُّ يَتَوَهَّجُ بِاللَّوْنِ الْأَزْرَقِ الدَّاكِنِ. كَانَتِ الشَّمْسُ عَلَى وَشْكِ السُّطُوعِ حِينَمَا لَاحَ الْبُنْيَانُ الضَّخْمُ لِلْعَقِيدِ عَلَى جَوَادِهِ. وَقَفَتِ الْكَتِيبَةُ وَقْتًا بَدَا طَوِيلًا، حَتَّى أَخَذَ صَبْرُ هنري يَنْفَدُ.

أَخِيرًا، اتَّجَهَ نَحْوَهُمْ رَجُلٌ آخَرُ عَلَى صَهْوَةِ جَوَادِهِ، حَاوَلَ الْجُنُودُ الْقَرِيبُونَ مِنْهُ أَنْ يَسْتَرِقُوا السَّمْعَ لِحَدِيثِهِ مَعَ الْعَقِيدِ. وبَعْدَ بِضْعِ دَقَائِقَ، اسْتَدَارَ الرَّجُلُ الثَّانِي بِجَوَادِهِ، وَابْتَعَدَ. وَفِي اللَّحْظَةِ التَّالِيَةِ، بَدَأَ الْجُنُودُ فِي السَّيْرِ وَسْطَ الظَّلَامِ. بَدَتِ الْكَتِيبَةُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَشْبَهَ بِوَحْشٍ مُتَحَرِّكٍ ذِي أَقْدَامٍ عَدِيدَةٍ. كَانَ الْهَوَاءُ بَارِدًا وَمُعَبَّأً بِالنَّدَى، وَكَانَ الْعُشْبُ الْمُبَلَّلُ بِالنَّدَى يُصْدِرُ حَفِيفًا كَالْحَرِيرِ كُلَّمَا وَطِئَهُ الْجُنُودُ.

أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ، وَرَأَى هنري رَتَلَيْنِ طَوِيلَيْنِ أَسْوَدَيْنِ مُكْتَظَّيْنِ بِالْجُنُودِ. اخْتَفَى الرَّتَلَانِ فَوْقَ تَلٍّ أَمَامَهُمْ، وَتَوَارَيَا عَنِ الْأَنْظَارِ فِي الْغَابَاتِ خَلْفَهُمْ. كَانَا صَفَّيْنِ مِنَ الرِّجَالِ يَسِيرُونَ إِلَى أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ، لَكِنَّهُمَا بَدَوَا كَثُعْبَانَيْنِ يَزْحَفَانِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ.

لَمْ يَكُنِ النَّهْرُ ظَاهِرًا فِي الرُّؤْيَةِ، وَوَاصَلَ الْجُنُودُ نِزَاعَهُمْ حَوْلَ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ الْخُطَطُ. لَمْ يُشَارِكْ هنري فِي تِلْكَ النِّزَاعَاتِ، بَلْ ظَلَّ يَسْأَلُ نَفْسَهُ أَثْنَاءَ سَيْرِهِ هَلْ سَيَفِرُّ مِنْ أَرْضِ

الْمَعْرَكَةِ أَمْ لَا. لَمْ يَسْتَطِعِ التَّوَقُّفَ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي الْأَمْرِ. كَانَ يَنْظُرُ إِلَى الْأَمَامِ مُتَوَقِّعًا فِي الْغَالِبِ أَنْ يَسْمَعَ صَوْتَ إِطْلَاقِ النِّيرَانِ.

بَدَأَ الرِّجَالُ الْآخَرُونَ فِي الْمُزَاحِ وَالضَّحِكِ، بَلْ إِنَّ بَعْضَهُمْ أَخَذَ يُغَنِّي، وَشَعَرَ هنري أَنَّهُ فِي عُزْلَةٍ عَنِ الْآخَرِينَ. عِنْدَ حُلُولِ الظَّلَامِ، انْقَسَمَ رَتَلُ الْجُنُودِ إِلَى وَحَدَاتٍ، وَدَخَلَتْ كُلُّ وَحْدَةٍ إِلَى الْحُقُولِ كَيْ تُخَيِّمَ. بَدَتِ الْخِيَامُ وَكَأَنَّهَا نَبَاتَاتٌ غَرِيبَةٌ، وَرَصَّعَتْ نِيرَانُ الْمُخَيَّمِ صَفْحَةَ اللَّيْلِ كَأَنَّهَا زُهُورٌ حَمْرَاءُ.

الفصل الثالث

حِوَارٌ مَعَ صَدِيقٍ

سَارَ هنري بِمُفْرَدِهِ فِي الظَّلَامِ. اسْتَلْقَى فَوْقَ الْحَشَائِشِ وَشَعَرَ بِالْأَسَى عَلَى حَالِهِ. كَانَ يَتَمَنَّى الْعَوْدَةَ إِلَى مَنْزِلِهِ مَرَّةً أُخْرَى، وَالْقِيَامَ بِجَوْلَاتِهِ مِنَ الْبَيْتِ إِلَى الْحَظِيرَةِ، وَمِنَ الْحَظِيرَةِ إِلَى الْحَقْلِ، وَمِنَ الْحَقْلِ إِلَى الْحَظِيرَةِ، وَمِنَ الْحَظِيرَةِ إِلَى الْبَيْتِ. تَذَكَّرَ هنري كَمْ كَانَ يَصِيحُ فِي الْبَقَرَةِ وَرِفَاقِهَا، لَكِنَّهُ الْآنَ يُفَكِّرُ فِيهَا فِي سَعَادَةٍ. أَخْبَرَ نَفْسَهُ أَنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ لِيَكُونَ جُنْدِيًّا، وَفَكَّرَ كَمْ هُوَ شَدِيدُ الِاخْتِلَافِ عَنِ الرِّجَالِ الْآخَرِينَ فِي فِرْقَتِهِ.

سَمِعَ هنري حَفِيفَ الْحَشَائِشِ، وَنَظَرَ حَوْلَهُ فَرَأَى الْجُنْدِيَّ ذَا الصَّوْتِ الْعَالِي، فَنَادَاهُ: «ويلسون!»

قَالَ ويلسون: «مَرْحَبًا يَا هنري، أَهَذَا أَنْتَ؟ مَا الَّذِي تَفْعَلُهُ هُنَا؟»

قَالَ هنري: «أُفَكِّرُ.»

بَدَأَ ويلسون فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي يَظُنُّ أَنَّهُمْ سَيُشَارِكُونَ فِيهَا قَرِيبًا.

قَالَ ويلسون: «سَنَنَالُ مِنْهُمُ الْآنَ! أَخِيرًا سَنَنَالُ مِنْهُمْ.»

قَالَ هنري: «نَعَمْ، يَقُولُ جيم كونكلن إِنَّنَا سَنَخُوضُ الْكَثِيرَ مِنَ الْقِتَالِ.»

قَالَ ويلسون: «أَظُنُّهُ عَلَى حَقٍّ هَذِهِ الْمَرَّةَ؛ فَأَمَامَنَا مَعْرَكَةٌ كَبِيرَةٌ، هَذَا أَمْرٌ مُؤَكَّدٌ.»

قَالَ هنري: «أَظُنُّكَ سَتُبْلِي بَلَاءً حَسَنًا.»

رَدَّ ويلسون: «لَا أَعْلَمُ، أَعْتَقِدُ أَنَّنِي سَأَفْعَلُ مِثْلَمَا يَفْعَلُ الْبَاقُونَ، سَوْفَ أَبْذُلُ قُصَارَى جُهْدِي.»

سَأَلَهُ هنري: «كَيْفَ تَعْرِفُ أَنَّكَ لَنْ تَفِرَّ حِينَمَا يَحِينُ وَقْتُ الْقِتَالِ؟»

قَالَ ويلسون: «أَفِرُّ؟!» ثُمَّ ضَحِكَ، وَأَضَافَ: «أَفِرُّ؟! بِالطَّبْعِ لَنْ أَفِرَّ!»

قَالَ هنري: «حَسَنًا، ظَنَّ الْكَثِيرُ مِنَ الرِّجَالِ أَنَّهُمْ سَيُحَقِّقُونَ انْتِصَارَاتٍ عَظِيمَةً قَبْلَ الْمَعْرَكَةِ، لَكِنْ عِنْدَمَا حَانَ الْوَقْتُ، فَرُّوا.»

قَالَ ويلسون: «هَذَا صَحِيحٌ عَلَى مَا أَعْتَقِدُ، لَكِنِّي لَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ، وَمَنْ يُرَاهِنْ عَلَى فِرَارِي فَسَوْفَ يَخْسَرُ.»

قَالَ هنري: «سُحْقًا! هَلْ أَنْتَ أَشْجَعُ رَجُلٍ فِي الْعَالَمِ؟»

رَدَّ ويلسون: «لَا، لَسْتُ كَذَلِكَ، وَلَمْ أَقُلْ إِنَّنِي الْأَشْجَعُ. قُلْتُ إِنَّنِي سَآخُذُ نَصِيبِي مِنَ الْقِتَالِ. وَمَنْ تَكُونُ أَنْتَ لِتُخَاطِبَنِي هَكَذَا عَلَى أَيَّةِ حَالٍ؟»

حَدَّقَ ويلسون فِي وَجْهِ هنري لَحْظَةً ثُمَّ سَارَ بَعِيدًا، فَصَاحَ هنري: «لَا دَاعِيَ لِأَنْ يُغْضِبَكَ الْأَمْرُ!»

شَعَرَ هنري بِالْوَحْدَةِ وَالتَّعَاسَةِ. بَدَا أَنَّهُ لَا أَحَدَ غَيْرَهُ يَشْغَلُ بَالَهُ هَلْ سَيَفِرُّ مِنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ أَمْ لَا. شَعَرَ أَنَّهُ غَرِيبٌ عَنْهُمْ، فَعَادَ إِلَى خَيْمَتِهِ وَاسْتَلْقَى عَلَى أَحَدِ الْأَغْطِيَةِ بِجِوَارِ جيم الَّذِي كَانَ يَغِطُّ فِي نَوْمِهِ. فِي الظَّلَامِ، تَرَاءَى لهنري فِي خَيَالِهِ الْخَوْفُ الَّذِي سَيَجْعَلُهُ يَرْكُضُ بَعِيدًا، بَيْنَمَا يَقِفُ الْآخَرُونَ فِي أَمَاكِنِهِمْ يُقَاتِلُونَ. كَانَ يَعْرِفُ أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى التَّعَامُلِ مَعَ هَذَا الْوَحْشِ، ظَلَّ يُحَدِّقُ فِي انْعِكَاسِ النَّارِ عَلَى جِدَارِ خَيْمَتِهِ حَتَّى أَرْهَقَهُ الْقَلَقُ، فَغَطَّ فِي النَّوْمِ.

الفصل الرابع

رِسَالَةٌ مِنْ ويلسون

حَلَّتْ لَيلَةٌ جَدِيدَةٌ، وَعَبَرَ رَتَلَا الْجُنُودِ اثْنَيْنِ مِنَ الْكَبَارِي. كَانَ هنري وَاثِقًا أَنَّهُمْ سَيَتَعَرَّضُونَ لِلْمُوَاجَهَةِ مِنَ الْكُهُوفِ فِي الْغَابَاتِ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ. لَمْ يُزْعِجْهُمْ أَحَدٌ فِي مَكَانِ تَخْيِيمِهِمْ، وَنَامَ الْجُنُودُ نَوْمَ الرِّجَالِ الْمُرْهَقِينَ. اسْتَيْقَظُوا فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، وَسَارُوا فِي طَرِيقٍ ضَيِّقٍ يُؤَدِّي إِلَى قَلْبِ الْغَابَةِ.

بَدَأَ الرِّجَالُ يَعُدُّونَ الْأَمْيَالَ الَّتِي قَطَعُوهَا، كَثِيرُونَ مِنْهُمْ أَلْقَوْا حَقَائِبَهُمْ بَعِيدًا، وَبَعْدَ قَلِيلٍ أَصْبَحَ عَدَدٌ قَلِيلٌ مِنْهُمْ لَا يَحْمِلُ سِوَى الْمَلَابِسِ الضَّرُورِيَّةِ، وَالْأَغْطِيَةِ، وَقِرَبِ الْمِيَاهِ، وَالْبَنَادِقِ، وَالذَّخِيرَةِ.

قَالَ جيم لهنري: «يُمْكِنُكَ الْآنَ أَنْ تَأْكُلَ وَتُصَوِّبَ، هَذَا كُلُّ مَا عَلَيْكَ فِعْلُهُ.»

وَاصَلَ الْجُنُودُ سَيْرَهُمْ بِضْعَةَ أَيَّامٍ، وَبَدَأَ هنري يُفَكِّرُ فِي الْأَمْرِ وَكَأَنَّهُ مَسِيرَةٌ لِلرِّجَالِ فِي زِيِّهِمُ الْعَسْكَرِيِّ الْأَزْرَقِ يُظْهِرُونَ فِيهَا كَفَاءَتَهُمْ فِي السَّيْرِ لَيْسَ أَكْثَرَ.

غَيْرَ أَنَّهُ فِي فَجْرِ أَحَدِ الْأَيَّامِ، رَكَلَ جيم هنري الَّذِي — قَبْلَ أَنْ يَسْتَيْقِظَ تَمَامًا — وَجَدَ نَفْسَهُ يَجْرِي عَلَى الطَّرِيقِ وَسْطَ رِجَالٍ يَلْهَثُونَ مِنَ الْجَرْيِ سَرِيعًا. كَانَ يَأْتِيهِمْ مِنْ بَعِيدٍ صَوْتُ دَوِيِّ الْأَعْيِرَةِ النَّارِيَّةِ، وَكَانُوا يَرْكُضُونَ بِاتِّجَاهِ هَذَا الصَّوْتِ مُبَاشَرَةً.

شَعَرَ هنري بِالِارْتِبَاكِ، وَحَاوَلَ أَنْ يُفَكِّرَ أَثْنَاءَ رَكْضِهِ مَعَ رِفَاقِهِ، لَكِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الرِّجَالَ خَلْفَهُ سَيَدْهَسُونَهُ إِذَا سَقَطَ أَرْضًا؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يُرَكِّزَ حَتَّى لَا يَتَعَثَّرَ. شَعَرَ وَكَأَنَّهُ يُدْفَعُ إِلَى الْأَمَامِ بِفِعْلِ حَشْدٍ مِنَ الرِّعَاعِ.

انْضَمَّتْ الْوَحَدَاتُ الْأُخْرَى إِلَى الْمَشْهَدِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَحِينَهَا عَلِمَ هنري أَنَّ وَقْتَهُ قَدْ حَانَ؛ إِنَّهُ عَلَى وَشْكِ الِاخْتِبَارِ. نَظَرَ حَوْلَهُ، وَرَأَى أَنَّ فِرَارَهُ مِنَ الْوَحْدَةِ مُسْتَحِيلٌ. كَانُوا يُحِيطُونَ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ حَتَّى شَعَرَ وَكَأَنَّهُ بِدَاخِلِ صُنْدُوقٍ مُتَحَرِّكٍ. أَدْرَكَ هنري أَنَّهُ لَمْ يَرْغَبْ قَطُّ فِي الِانْضِمَامِ إِلَى الْحَرْبِ، وشَعَرَ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَخْتَرْ الِانْضِمَامَ إِلَى الْجَيْشِ. لَقَدِ اسْتَدْرَجَتْهُ الْحُكُومَةُ الَّتِي جَعَلَتْهُ يَشْعُرُ أَنَّ هَذَا وَاجِبُهُ، وَالْآنَ تَأْخُذُهُ إِلَى نِهَايَةِ حَيَاتِهِ. شَعَرَ بِالْغَضَبِ لِأَنَّهُ هُنَا، وَفَقَدَ ثِقَتَهُ فِي الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ مَسْئُولِيَّةَ الْجَيْشِ.

عِنْدَمَا وَصَلَ الرِّجَالُ إِلَى الْخَلَاءِ، تَوَقَّعَ هنري أَنْ يَرَى قِتَالًا، لَكِنَّهُ رَأَى مَجْمُوعَاتٍ صَغِيرَةً مِنَ الرِّجَالِ يَرْكُضُونَ ذَهَابًا وَإِيَابًا. كَانُوا يُطْلِقُونَ النَّارَ فِي الْأُفُقِ. رَفْرَفَ أَحَدُ الْأَعْلَامِ، وَمَرَّتِ الْوَحْدَةُ بِجُثَّةِ رَجُلٍ رَفَعَتِ الرِّيَاحُ لِحْيَتَهُ وَكَأَنَّ يَدًا كَانَتْ تُدَاعِبُهَا. امْتَلَأَتْ رَأْسُ هنري بِأَفْكَارٍ غَرِيبَةٍ بَيْنَمَا وَاصَلَ السَّيْرَ. ظَنَّ أَنَّ الْأَرْضَ تُهَدِّدُهُ، وَأَنَّ الْعَدُوَّ سَيُهَاجِمُهُ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ وَيَقْتُلُهُ هُوَ

وَأصدِقَاءَهُ. أرَادَ أنْ يُحَذِّرَهُمْ مِنْ أنَّ الجِنْرَالَاتِ لَيْسُوا عَلَى وَعْيٍ بِمَا يَفْعَلُونَ، لَكِنَّهُ عَلِمَ أنَّ أحَدًا لَنْ يَسْتَمِعَ إلَيْهِ، وَعَلَى الْأَرْجَحِ سَيَضْحَكُونَ مِنْهُ.

عِنْدَمَا تَوَقَّفُوا وَاسْتَلْقَوْا عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى يَكُونُوا فِي مَأْمَنٍ، بَدَأَ الْعَدِيدُ مِنْ رِجَالِ الْوَحْدَةِ بِنَاءَ تِلَالٍ صَغِيرَةٍ أَمَامَهُمْ. اسْتَخْدَمُوا الْأَحْجَارَ، وَالْعِصِيَّ، وَالتُّرَابَ، وَأَيَّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ التَّصَدِّي لِلرَّصَاصِ. أَخَذَ الرِّجَالُ يَتَنَاقَشُونَ: هَلْ فِعْلُ ذَلِكَ شَيْءٌ مُشَرِّفٌ أَمْ أَنَّهُ أَكْرَمُ لَهُمْ أَنْ يَقِفُوا وَيُوَاجِهُوا الْعَدُوَّ دُونَ أَيِّ حِمَايَةٍ؟ صَدَرَ الْأَمْرُ لِلْوَحْدَةِ بِالتَّحَرُّكِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ مِمَّا جَعَلَ صَبْرَ هنري يَنْفَدُ، وَتَسَاءَلَ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ لِمَاذَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ؟!

أَكَلَ جيم الْقَلِيلَ، وَأَجَابَ: «حَسَنًا، أَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيْنَا مُوَاصَلَةُ السَّيْرِ كَيْ نَمْنَعَ الْعَدُوَّ مِنْ الِاقْتِرَابِ كَثِيرًا أَوْ شَيْئًا كَهَذَا.»

فِي الظَّهِيرَةِ، تَحَرَّكَتِ الْوَحْدَةُ فَوْقَ نَفْسِ الْأَرْضِ الَّتِي سَارُوا فَوْقَهَا فِي الصَّبَاحِ. بَدَتِ الْأَرْضُ مَأْلُوفَةً لهنري أَكْثَرَ؛ فَلَمْ تَكُنْ تُهَدِّدُهُ بَعْدَ الْآنَ، لَكِنْ عِنْدَمَا يَمُرُّونَ عَبْرَ أَيِّ مِنْطَقَةٍ جَدِيدَةٍ، تُعَاوِدُ هنري مَشَاعِرُ الْقَلَقِ الْقَدِيمَةُ النَّابِعةُ مِنَ الْبَلَاهَةِ وَالْخَوْفِ. بَعْدَ بُرْهَةٍ، قَرَّرَ هنري أَنَّهُ لَنْ يَأْبَهَ لِتِلْكَ الْبَلَاهَةِ. تَسَاءَلَ كَيْفَ سَيَكُونُ الْوَضْعُ إِذَا مَا أُصِيبَ فِي مَعْرَكَتِهِ الْأُولَى.

بَعْدَ قَلِيلٍ سَمِعَ دَوِيَّ الْأَعْيِرَةِ النَّارِيَّةِ أَمَامَهُ، وَرَأَى الْجُنُودَ يَرْكُضُونَ، تَتْبَعُهُمْ أَصْوَاتُ إِطْلَاقِ النِّيرَانِ. نَسِيَ هنري أَمْرَ احْتِمَالِ إِصَابَتِهِ بِطَلْقٍ نَارِيٍّ، وَشَاهَدَ الْمَعْرَكَةَ فِي ذُهُولٍ. فَجْأَةً! شَعَرَ بِيَدٍ ثَقِيلَةٍ فَوْقَ كَتِفِهِ، وَعِنْدَمَا اسْتَدَارَ رَأَى ويلسون، الْجُنْدِيَّ عَالِيَ الصَّوْتِ.

قَالَ ويلسون: «إِنَّهَا مَعْرَكَتِي الْأُولَى وَالْأَخِيرَةُ يَا فَتى.» كَانَ ويلسون شَاحِبًا لِلْغَايَةِ وَشَفَتَاهُ تَرْتَجِفَانِ.

غَمْغَمَ هنري فِي ذُهُولٍ بَالِغٍ: «مَا الْأَمْرُ؟!»

أَجَابَ ويلسون: «قُلْتُ: إِنَّهَا مَعْرَكَتِي الْأُولَى وَالْأَخِيرَةُ. شَيْءٌ مَا يُخْبِرُنِي ...»

سَأَلَ هنري: «مَاذَا؟!»

قَالَ ويلسون: «أُرِيدُكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذَا إِلَى أَهْلِي.» وَأَنْهَى كَلَامَهُ بِتَنْهِيدَةٍ عَبَّرَتْ عَنْ أَسَفِهِ عَلَى حَالِهِ، وَسَلَّمَ هنري مَظْرُوفًا صَغِيرًا.

قَالَ هنري: «مَا الَّذِي ...» لَكِنَّ ويلسون رَمَقَهُ بِنَظْرَةٍ كَأَنَّهَا آتِيَةٌ مِنْ أَعْمَاقِ الْقُبُورِ، وَرَفَعَ يَدَهُ الْوَاهِنَةَ، ثُمَّ اسْتَدَارَ مُبْتَعِدًا.

الفصل الخامس

وَبَدَأَتِ الْمَعْرَكَةُ

تَوَقَّفَ الرِّجَالُ عَلَى حَافَّةِ إِحْدَى الْحَدَائِقِ، حَيْثُ جَثَمُوا عَلَى الْأَرْضِ بَيْنَ الْأَشْجَارِ يُصَوِّبُونَ أَسْلِحَتَهُمْ نَحْوَ الْحُقُولِ، وَيُحَاوِلُونَ النَّظَرَ فِيمَا وَرَاءَ الضَّبَابِ؛ حَيْثُ اسْتَطَاعُوا رُؤْيَةَ رِجَالٍ آخَرِينَ يَرْكُضُونَ وَبَعْضُهُمْ يَصِيحُ وَيُلَوِّحُ. نَظَرَ رِجَالُ وَحْدَةِ هنري وَاسْتَمَعُوا فِي حِرْصٍ، وَظَلُّوا مَشْغُولِينَ بِالْحَدِيثِ عَنِ الشَّائِعَاتِ الَّتِي سَمِعُوهَا.

قَالَ أَحَدُ الرِّجَالِ: «قَابَلْتُ أَحَدَ الْفِتْيَانِ مِنْ وِلَايَةِ «مين»، وَقَالَ إِنَّ فِرْقَتَهُ حَارَبَتْ جَيْشَ الْمُتَمَرِّدِينَ كُلَّهُ لِمُدَّةِ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ وَقَتَلَتْ نَحْوَ خَمْسَةِ آلَافٍ مِنْهُمْ. قَالَ إِنَّ مَعْرَكَةً أُخْرَى كَهَذِهِ سَوْفَ تُنْهِي الْحَرْبَ تَمَامًا.»

تَزَايَدَ الصَّخَبُ أَمَامَهُمْ، وَتَجَمَّدَ هنري وَرِفَاقُهُ صَمْتًا فِي أَمَاكِنِهِمْ. بِإِمْكَانِهِمْ رُؤْيَةُ الْعَلَمِ يُرَفْرِفُ غَضَبًا وَسْطَ الدُّخَانِ، وَبِالْقُرْبِ مِنْهُ صُوَرٌ ضَبَابِيَّةٌ لِلْوَحَدَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ. لَاذَتْ مَجْمُوعَةٌ مُرْتَبِكَةٌ مِنَ الرِّجَالِ بِالْفِرَارِ عَبْرَ الْحُقُولِ.

مَرَّتْ قَذِيفَةٌ مُدَوِّيَةٌ مِثْلَ الْعَاصِفَةِ فَوْقَ رُءُوسِ جُنُودِ الِاحْتِيَاطِ، وَهَبَطَتْ فَوْقَ أَرْضِ الْبُسْتَانِ، ثُمَّ انْفَجَرَتْ لِتُبَعْثِرَ التُّرَابَ الْبُنِّيَّ وَأَوْرَاقَ الصَّنَوْبَرِ فِي كُلِّ مَكَانٍ. وبَدَأَ صَفِيرُ الرَّصَاصَاتِ بَيْنَ الْأَغْصَانِ وَانْطِلَاقُها بِسُرْعَةٍ نَحْوَ الْأَشْجَارِ. وتَدَلَّتِ الْأَغْصَانُ وَالْأَوْرَاقُ إِلَى الْأَسْفَلِ، وَكَأَنَّ آلَافَ الْفُئُوسِ الْخَفِيَّةِ تَنْزِلُ عَلَيْهَا؛ فاضْطُرَّ كَثِيرٌ مِنَ الرِّجَالِ إِلَى تَغْطِيَةِ رُءُوسِهِمْ.

أُصِيبَ مُلَازِمُ كَتِيبَةِ هنري بِطَلْقَةٍ فِي يَدِهِ، وأَخَذَ يَكِيلُ اللَّعَنَاتِ حَتَّى سَرَتْ ضَحِكَةٌ مَشُوبَةٌ بِالتَّوَتُّرِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْكَتِيبَةِ. ضَغَطَ الْمُلَازِمُ عَلَى جُرْحِهِ كَيْ لَا تَتَسَاقَطَ الدِّمَاءُ فَوْقَ سِرْوَالِهِ، ثُمَّ رَبَطَ قَائِدُ الْفِرْقَةِ مِنْدِيلًا حَوْلَ الْجُرْحِ.

رَفْرَفَتْ رَايَةُ الْمَعْرَكَةِ بَعِيدًا فِي جُنُونٍ، وَكَأَنَّهَا تُكَافِحُ لِتَحْرِيرِ نَفْسِهَا. امْتَلَأَ الدُّخَانُ الدَّائِرُ فِي الْهَوَاءِ بِوَمَضَاتٍ أُفُقِيَّةٍ، وَظَهَرَ عَبْرَهُ رِجَالٌ يَهْرُبُونَ بِسُرْعَةٍ مِنَ الْقِتَالِ، ثم ازْدَادَ عَدَدُهُمْ حَتَّى بَدَا وَكَأَنَّ الْكَتِيبَةَ كُلَّهَا تَلُوذُ بِالْفِرَارِ. وانْخَفَضَ الْعَلَمُ وَكَأَنَّهُ يُحْتَضَرُ، وبَدَتْ حَرَكَتُهُ وَهُوَ يُنَكَّسُ إِشَارَةً لِلْيَأْسِ.

شَعَرَ هنري بِالذُّعْرِ مِنَ النَّظَرَاتِ الَّتِي عَلَتْ وُجُوهَ الْفَارِّينَ، شَعَرَ أَنَّهُ لَا شَيْءَ فِي الْعَالَمِ قَدْ يَمْنَعُهُ مِنَ الْفِرَارِ إِذَا لَاحَتْ لَهُ الْفُرْصَةُ، لَكِنْ كَانَ عَلَى الرِّجَالِ فِي وَحْدَتِهِ التَّشَبُّثُ بِمَوَاقِعِهِمْ. وَقَفُوا جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ يَرْتَعِشُونَ وَيَزْدَادُونَ شُحُوبًا.

جَالَتْ بِخَاطِرِ هنري فِكْرَةٌ وَحِيدَةٌ فِي خِضَمِّ تِلْكَ الْفَوْضَى؛ فَالْوَحْشُ الَّذِي تَسَبَّبَ فِي فِرَارِ الْوَحَدَاتِ الْأُخْرَى لَمْ يَظْهَرْ بَعْدُ. وقَرَّرَ هنري أَنْ يَتَرَقَّبَهُ، ظَنَّ أَنَّهُ لَوِ اسْتَطَاعَ فِعْلَ ذَلِكَ، سَيَكُونُ قَادِرًا عَلَى الْفِرَارِ أَسْرَعَ مِنْ أَيِّ شَخْصٍ آخَرَ.

الفصل السادس

الطَّلْقَةُ الْأُولَى

كَانَتْ هُنَاكَ لَحَظَاتُ انْتِظَارٍ كَثِيرَةٌ، وتَذَكَّرَ هنري الشَّارِعَ فِي مَدِينَتِهِ عِنْدَمَا كَانَ الْجَمِيعُ يَنْتَظِرُونَ قُدُومَ مَوْكِبِ السِّيركِ فِي الرَّبِيعِ.

صَاحَ أَحَدُهُمْ فَجْأَةً: «هَا قَدْ أَتَوْا!»

سَرَتْ غَمْغَمَاتٌ وَهَمْهَمَاتٌ بَيْنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ سَحَبُوا صَنَادِيقَ الرَّصَاصِ بِالْقُرْبِ مِنْهُمْ، وَغَيَّرُوا مَوَاقِعَهُمْ فِي حَذَرٍ بَالِغٍ. «هَا قَدْ أَتَوْا! هَا قَدْ أَتَوْا!» وتَحَرَّكَتْ أَزْنُدُ الْبَنَادِقِ.

عَبْرَ الْحَقْلِ الْمُغَطَّى بِالدُّخَانِ ظَهَرَ سِرْبٌ مِنَ الرِّجَالِ فِي زِيِّهِمُ الرَّمَادِيِّ، يَصِيحُونَ بِأَصْوَاتٍ مُرْتَفِعَةٍ صَاخِبَةٍ. عِنْدَمَا رَآهُمْ هنري ارْتَبَكَ فَجْأَةً مِنْ فِكْرَةِ أَنَّ بُنْدُقِيَّتَهُ رُبَّمَا لَا تَكُونُ مَحْشُوَّةً بِالرَّصَاصِ. حَاوَلَ أَنْ يَتَذَكَّرَ مَتَى حَشَاهَا، لَكِنَّهُ كَانَ مُرْتَبِكًا لِلْغَايَةِ.

سَحَبَ جِنْرَالٌ لَا يَرْتَدِي قُبَّعَةً جَوَادَهُ لِيَقِفَ بِجِوَارِ الْعَقِيدِ الَّذِي يَرْأَسُ كَتِيبَةَ هنري، وَلَوَّحَ بِقَبْضَةِ يَدِهِ فِي وَجْهِ الْعَقِيدِ.

صَاحَ اللِّوَاءُ مُحْتَدًّا: «كَانَ عَلَيْكَ رَدْعُهُمْ! كَانَ عَلَيْكَ رَدْعُهُمْ!»

وَسْطَ شُعُورِ الْعَقِيدِ بِالِارْتِبَاكِ، بَدَأَ يَتَحَدَّثُ مُتَلَعْثِمًا.

«حَسَنًا يا جِنْرَالُ! سَـ... و... فَـ نَـ... نَـ... نَفْعَلُ ... نَفْعَلُ مَا فِي وُسْعِنَا يَا جِنْرَالُ.»

أَوْمَأَ الجِنْرَالُ إِيمَاءَةً مَمْزُوجَةً بِالْغَضَبِ، وَقَادَ الْجَوَادَ مُبْتَعِدًا. غَمْغَمَ أَحَدُ الرِّجَالِ بِالْقُرْبِ مِنْ هنري: «لَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ! لَقَدْ حَانَ الْوَقْتُ!»

كَانَ قَائِدُ الْفِرْقَةِ يَذْرَعُ الْمَكَانَ ذَهَابًا وَإِيَابًا خَلْفَ الرِّجَالِ فِي انْفِعَالٍ، وَظَلَّ يُرَدِّدُ: «لَا تُطْلِقُوا النِّيرَانَ أَيُّهَا الْفِتْيَانُ. لَا تُطْلِقُوا النِّيرَانَ إِلَّا عِنْدَمَا أُخْبِرُكُمْ. انْتَظِرُوا حَتَّى يَقْتَرِبُوا كَثِيرًا.»

أَلْقَى هنري نَظْرَةً عَلَى الْعَدُوِّ فِي الْحَقْلِ أَمَامَهُ، وَتَوَقَّفَ عَنِ التَّفْكِيرِ فِيمَا إِذَا كَانَتِ الْبُنْدُقِيَّةُ مَحْشُوَّةً أَمْ لَا. وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَعِدَّ، وَقَبْلَ أَنْ يُخْبِرَ نَفْسَهُ أَنَّهُ عَلَى وَشْكِ الْقِتَالِ، صَوَّبَ بُنْدُقِيَّتَهُ، وَأَطْلَقَ أَوَّلَ رَصَاصَةٍ عَشْوَائِيَّةٍ، حَتَّى قَبْلَ أَنْ يَصْدُرَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ فِي تَشْغِيلِ سِلَاحِهِ.

فَقَدَ هنري فَجْأَةً قَلَقَهُ عَلَى نَفْسِهِ؛ إِذْ شَعَرَ وَكَأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ شَيْءٍ أَكْبَرَ، كَانَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَعْرِفُهُ أَنَّهُ مَهْمَا يَكُنْ مَا هُوَ فِيهِ الْآنَ، فَهُوَ فِي وَرْطَةٍ، لَنْ يَسْتَطِيعَ بِأَيِّ حَالٍ أَنْ يَتْرُكَ كَتِيبَتَهُ بَعْدَ الْآنَ. كَانَ دَائِمَ الِانْتِبَاهِ لِرِفَاقِهِ الْوَاقِفِينَ بِجِوَارِهِ، وَكَأَنَّ رَابِطَةَ إِخَاءٍ قَدْ وُلِدَتْ مِنْ بَيْنِ الدُّخَانِ وَخَطَرِ الْمَوْتِ.

الفصل السابع

وَأَخِيرًا الْقِتَالُ

عَمِلَ هنري بِسُرْعَةٍ، وَمَلَأَ أُذُنَيْهِ صَوْتُ ضَجِيجٍ مُزْعِجٍ، وَمَا إِنْ مَرَّ الصَّوْتُ، حَتَّى شَعَرَ بِغَضَبٍ شَدِيدٍ وَكَأَنَّهُ وَحْشٌ يُضَيَّقُ عَلَيْهِ الْخِنَاقَ. حَارَبَ هنري بِجُنُونٍ، وَكَانَ جَمِيعُ الرِّجَالِ مِنْ حَوْلِهِ يُصْدِرُونَ أَصْوَاتًا غَرِيبَةً. لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَتَظَاهَرُ بِمَظْهَرِ الْبُطُولَةِ، بَلْ كَانُوا مُنْشَغِلِينَ لِلْغَايَةِ بِحَشْوِ الْبَنَادِقِ وَإِطْلَاقِ النِّيرَانِ وَإِعَادَةِ حَشْوِهَا.

وَقَفَ الضُّبَّاطُ وَرَاءَ الرِّجَالِ وَأَخَذُوا يُشَجِّعُونَهُمْ.

الْتَقَى مُلَازِمُ وَحْدَةِ هنري بِجُنْدِيٍّ كَانَ قَدْ فَرَّ عِنْدَمَا بَدَأَ إِطْلَاقُ النِّيرَانِ، فَجَذَبَهُ مِنْ يَاقَتِهِ وَأَرْغَمَهُ عَلَى الْعَوْدَةِ إِلَى الصَّفِّ الْأَمَامِيِّ. عَادَ الْجُنْدِيُّ، لَكِنْ كَانَ وَاضِحًا أَنَّ قَلْبَهُ لَمْ يَكُنْ فِي مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ. حَاوَلَ الْجُنْدِيُّ إِعَادَةَ تَعْبِئَةِ بُنْدُقِيَّتِهِ، لَكِنَّ يَدَيْهِ كَانَتَا تَرْتَجِفَانِ بِشِدَّةٍ حَتَّى اضْطُرَّ الْمُلَازِمُ إِلَى مُسَاعَدَتِهِ.

تَسَاقَطَ الرِّجَالُ هُنَا وَهُنَاكَ، وكَانَ قَائِدُ فِرْقَةِ هنري قَدْ قُتِلَ فِي بِدَايَةِ الْمَعْرَكَةِ. كَانَ جَسَدُهُ مُمَدَّدًا كَرَجُلٍ يَسْتَرِيحُ، لَكِنْ عَلَتْ وَجْهَهُ نَظْرَةُ دَهْشَةٍ وَأَسًى، وَكَأَنَّهُ قُتِلَ بِيَدِ صَدِيقٍ لَا بِيَدِ عَدُوٍّ. أُصِيبَ رَجُلٌ كَانَ يَبْكِي بِجِوَارِ هنري بِطَلْقَةٍ أَسَالَتِ الدِّمَاءَ عَلَى وَجْهِهِ.

وفِي النِّهَايَةِ، سَرَتْ صَيْحَةٌ فِي الصَّفِّ، وَتَوَقَّفَ إِطْلَاقُ النِّيرَانِ. عِنْدَمَا انْقَشَعَ الدُّخَانُ، رَأَى هنري أَنَّ الرِّجَالَ ذَوِي الزِّيِّ الرَّمَادِيِّ قَدْ تَقَهْقَرُوا إِلَى الْخَلْفِ. كَانَ الْعَدُوُّ مُنْتَشِرًا فِي مَجْمُوعَاتٍ، وبَدَأَ بَعْضُ الْجُنُودِ فِي فِرْقَتِهِ بِالصِّيَاحِ، بَيْنَمَا خَيَّمَ الصَّمْتُ عَلَى الْكَثِيرِينَ. وعِنْدَمَا هَدَأَ هنري، شَعَرَ وَكَأَنَّهُ سَيَخْتَنِقُ. كَانَ مُتَّسِخًا وَيَتَصَبَّبُ عَرَقًا؛ فَأَخَذَ شَرْبَةً طَوِيلَةً بَارِدَةً مِنْ قِرْبَةِ الْمِيَاهِ.

صَاحَ أَحَدُ الرِّجَالِ: «لَقَدْ دَحَرْنَاهُمْ!»

كَانَ هنري مُبْتَهِجًا. كَانَ مُحَاطًا بِالْكَثِيرِ مِنَ الْجُثَثِ الْمُمَدَّدَةِ حَوْلَهُ، وَكَأَنَّهَا قَدْ سَقَطَتْ مِنَ السَّمَاءِ. لَقَدْ رَأَى الْمَعَارِكَ تَدُورُ رَحَاهَا عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَتَعَجَّبَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي وسَطِ الْمَعْرَكَةِ.

عِنْدَمَا نَظَرَ حَوْلَهُ، لَاحَظَ السَّمَاءَ الزَّرْقَاءَ وَالشَّمْسَ الَّتِي تُشْرِقُ عَلَى الْأَشْجَارِ وَالْحُقُولِ، وَتَمَلَّكَتْهُ الدَّهْشَةُ مِنْ أَنَّ الطَّبِيعَةَ لَمْ تَتَأَثَّرْ بِكُلِّ تِلْكَ الْحُرُوبِ.

الفصل الثامن

فِرَارُ الرِّجَالِ

نَظَر هنري حَوْلَهُ تُصِيبُهُ حَالَةٌ مِنَ الدُّوَارِ. الْتَقَطَ قُبَّعَتَهُ مِنَ الْأَرْضِ وَتَحَرَّكَ دَاخِلَ سُتْرَتِهِ حَتَّى يَسْتَوِيَ وَضْعُهَا، ثُمَّ انْحَنَى لِيَعْقِدَ رِبَاطَ حِذَائِهِ.

لَقَدِ انْتَهَتْ أَخِيرًا! مَرَّ الِاخْتِبَارُ، وَانْقَضَتْ صُعُوبَاتُ الْحَرْبِ. كَانَ مُبْتَهِجًا، وَعَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّهُ قَدْ أَبْلَى بَلَاءً حَسَنًا. شَعَرَ الرِّجَالُ الْآخَرُونَ بِنَفْسِ الْفَخْرِ الَّذِي شَعَرَ بِهِ هنري، فَصَافَحَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَسَاعَدُوا الْجَرْحَى مِنْهُمْ، لَكِنْ فَجْأَةً انْدَلَعَتْ صَيْحَاتُ الذُّهُولِ بَيْنَ الجُنُودِ.

صَاحَ أَحَدُ الرِّجَالِ: «لَقَدْ أَتَوْا مَرَّةً أُخْرَى!»

رَأَى هنري عَنْ بُعْدٍ أُنَاسًا يَعْدُونَ خَارِجَ الْغَابَاتِ، وَرَأَى أَيْضًا الْعَلَمَ الْمَائِلَ يُسْرِعُ إِلَى الْأَمَامِ.

دَارَتِ الْقَذَائِفُ — الَّتِي لَمْ تُرْبِكِ الْجُنُودَ بَعْضَ الْوَقْتِ — حَوْلَهُمْ مَرَّةً أُخْرَى. كَانَتْ تَنْفَجِرُ وَسْطَ الْحَشَائِشِ وَبَيْنَ الْأَشْجَارِ. بَدَتْ الِانْفِجَارَاتُ كَأَنَّهَا زُهُورٌ غَرِيبَةٌ تَتَفَتَّحُ فِي حَرَكَةٍ عَنِيفَةٍ.

تَأَوَّهَ الرِّجَالُ، وَتَحَرَّكُوا فِي بُطْءٍ وَصُعُوبَةٍ. وَمَا إِنْ رَأَوْا الِاقْتِرَابَ السَّرِيعَ لِلْعَدُوِّ، حَتَّى بَدَءُوا يَتَمَرَّدُونَ عَلَى وَاجِبِهِمْ.

سَأَلَ أَحَدُهُمْ: «لِمَاذَا لَا يُرْسِلُ أَحَدٌ دَعْمًا؟»

وَقَالَ آخَرُ: «لَنْ نَنْجُوَ مِنْ هُجُومٍ ثَانٍ، لَمْ آتِ إِلَى هُنَا لِأُحَارِبَ جَيْشَ الْمُتَمَرِّدِينَ اللَّعِينَ كُلَّهُ وَحْدِي.»

حَدَّقَ هنري فِي ذُهُولٍ. بِالطَّبْعِ لَمْ يَكُنْ يَظُنُّ أَنَّ الْقِتَالَ سَيَكُونُ وَشِيكًا. لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ مَعْرَكَةٌ أُخْرَى. ظَلَّ يَنْتَظِرُ وَكَأَنَّ الْجَمِيعَ سَيَتَوَقَّفُونَ وَيَعْتَرِفُونَ أَنَّهُ كَانَ خَطَأً، لَكِنَّ إِطْلَاقَ النِّيرَانِ بَدَأَ ثَانِيَةً، وَتَوَالَى فِي كِلَا الِاتِّجَاهَيْنِ. كَانَتْ رَقَبَةُ هنري تَرْتَعِشُ، وَيَدَاهُ مُتَيَبِّسَتَيْنِ. بَدَأَ يَتَخَيَّلُ أَنَّ جُنُودَ الْعَدُوِّ أَفْضَلُ وَأَقْوَى مِنَ الرِّجَالِ فِي فِرْقَتِهِ. لَا بُدَّ وَأَنَّ جُنُودَ الْعَدُوِّ عِبَارَةٌ عَنْ آلَاتٍ مِنْ حَدِيدٍ. لَقَدْ بَدَوْا كَالتَّنَانِينِ وَسْطَ الدُّخَانِ.

فَجْأَةً! تَوَقَّفَ رَجُلٌ كَانَ قَرِيبًا مِنْ هنري وَمُنْشَغِلًا بِحَشْوِ بُنْدُقِيَّتِهِ، وَلَاذَ بِالْفِرَارِ وَهُوَ يُطْلِقُ صَيْحَةً عَالِيَةً. شَاهَدَ رَجُلٌ آخَرُ كَانَتْ تَرْتَسِمُ عَلَى وَجْهِهِ عَلَامَاتُ الشَّجَاعَةِ هَذَا الْمَشْهَدَ، وَتَمَلَّكَهُ الْخَوْفُ، فَأَلْقَى هُوَ الْآخَرُ بِبُنْدُقِيَّتِهِ وَلَاذَ بِالْفِرَارِ. لَمْ يَبْدُ الْخِزْيُ عَلَى وَجْهِهِ، كَانَ يَفِرُّ كَالْأَرْنَبِ.

بَدَأَ رِجَالٌ آخَرُونَ فِي الرَّكْضِ وَسْطَ الدُّخَانِ، وَشَاهَدَهُمْ هنري؛ فَصَرَخَ صَرْخَةَ هَلَعٍ وَاسْتَدَارَ وَأَخَذَ يَعْدُو.

لِلَحظَةٍ فَقَدَ هنري إحْسَاسَهُ بِالِاتِّجَاهِ الآمِنِ؛ فَالَموْتُ وَالإِصَابَةُ يُهَدِّدَانِهِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ.

بَدَأَ يَرْكُضُ نَحْوَ مُؤَخِّرَةِ فِرْقَتِهِ، وَفَقَدَ بُنْدُقِيَّتَهُ وَقُبَّعَتَهُ، وَطَارَ مِعْطَفُهُ مَفْتُوحَ الْأَزْرَارِ مَعَ الرِّيَاحِ. كَانَ وَجْهُ هنري مَكْسُوًّا بِالرُّعْبِ الَّذِي نَسَجَهُ فِي خَيَالِهِ. حَاوَلَ الْمُلَازِمُ أَنْ يُمْسِكَ بِهِ، لَكِنَّهُ هَرَبَ، هَرَبَ مِثْلَ رَجُلٍ كَفِيفٍ، اصْطَدَمَ كَتِفُهُ بِإِحْدَى الْأَشْجَارِ بِقُوَّةٍ فَسَقَطَ أَرْضًا.

مَا إِنْ أَدَارَ هنري ظَهْرَهُ إِلَى الْعَدُوِّ، حَتَّى تَزَايَدَتْ مَخَاوِفُهُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ. جَعَلَ خَيَالُهُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْوَأَ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ حَقِيقَةً؛ وَبَيْنَمَا كَانَ يَفِرُّ، رَأَى الرِّجَالَ عَلَى يَمِينِهِ وَعَلَى يَسَارِهِ يَفْعَلُونَ الشَّيْءَ نَفْسَهُ، وَسَمِعَ وَقْعَ أَقْدَامٍ عَدِيدَةٍ خَلْفَهُ. تَسَاقَطَتِ الْقَذَائِفُ فَوْقَ رَأْسِهِ تُصَاحِبُهَا صَرَخَاتٌ طَوِيلَةٌ جَامِحَةٌ.

انْتَابَ هنري الذُّهُولُ عِنْدَمَا مَرَّ عَلَى جَمَاعَةٍ أُخْرَى يُشَارِكُ أَفْرَادُهَا فِي الْقِتَالِ، كَانُوا يُقَاتِلُونَ بِحَمَاسٍ بَالِغٍ، ولَا أَحَدَ مِنْهُمْ يَبْدُو عَلَى دِرَايَةٍ بِالْمَوْتِ الْقَادِمِ نَحْوَهُمْ. فَكَّرَ هنري أَنَّهُمْ حَمْقَى وَأَشْفَقَ عَلَيْهِمْ.

وَاصَلَ هنري تَحَرُّكَهُ بَعِيدًا عَنِ الْأَحْدَاثِ، وَأَخِيرًا، رَأَى جِنْرَالًا يَمْتَطِي جَوَادًا. أَحْيَانًا يَكُونُ الجِنْرَالُ مُحَاطًا بِرِجَالٍ آخَرِينَ عَلَى صَهَوَاتِ جِيَادِهِمْ، وَأَحْيَانًا أُخْرَى يَكُونُ بِمُفْرَدِهِ.

مَكَثَ هنري بِجِوَارِ الجِنْرَالِ، وَحَاوَلَ أَنْ يَسْتَرِقَ السَّمْعَ لِمَا كَانَ يَقُولُ. رُبَّمَا يَسْأَلُهُ الجِنْرَالُ عَنْ مَعْلُومَاتٍ فَيُخْبِرُهُ هنري بِكُلِّ الِارْتِبَاكِ الَّذِي يَجْتَاحُ الصُّفُوفَ الْأَمَامِيَّةَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ. أَرَادَ هنري أَنْ يُخْبِرَ الجِنْرَالَ أَنَّهُ مِنَ الْخَطَأِ أَنْ يَجْلِسَ هُنَا دُونَ أَنْ يَبْذُلَ أَيَّ جُهْدٍ لِإِيقَافِ الْمَوْتِ الَّذِي يَحْصُدُ الْأَرْوَاحَ خَلْفَهُ. أَيُّ أَحْمَقَ سَيَقُولُ إِنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَى الرِّجَالِ التَّقَهْقُرُ إِلَى الْوَرَاءِ.

هُرِعَ أَحَدُ الضُّبَّاطِ إِلَى الجِنْرَالِ، وَقَالَ: «بِحَقِّ السَّمَاءِ، لَقَدْ فَعَلُوهَا! لَقَدْ أَوْقَفُوهُمْ!»

بَدَأَ الجِنْرَالُ يَصِيحُ فِي جُنُودِهِ: «لَقَدْ نِلْنَا مِنْهُمْ! نِلْنَا مِنْهُمْ بِالتَّأْكِيدِ!»

الفصل التاسع

رَجُلُ الْغَابَةِ

انْكَمَشَ هنري وَكَأَنَّهُ مُتَلَبِّسٌ بِجَرِيمَةٍ. لَقَدِ انْتَصَرُوا رَغْمَ كُلِّ شَيْءٍ! الْحَمْقَى الَّذِينَ ظَلُّوا فِي الْخَلْفِ هَزَمُوا الْعَدُوَّ. اسْتَطَاعَ سَمَاعَ الْهُتَافِ مِنْ خَلْفِهِ. اسْتَدَارَ وَقَدْ تَمَلَّكَهُ شُعُورٌ بِالذُّهُولِ وَالْغَضَبِ، شَعَرَ أَنَّهُ أَخْطَأَ.

أَخْبَرَ هنري نَفْسَهُ أَنَّهُ فَرَّ لِأَنَّ الْهَزِيمَةَ السَّاحِقَةَ كَانَتْ وَشِيكَةً. لَقَدْ فَعَلَ الصَّوَابَ بِأَنْ أَنْقَذَ نَفْسَهُ. كَانَ هنري جُزْءًا صَغِيرًا مِنَ الْجَيْشِ، وَوَاجِبُ كُلِّ جُزْءٍ صَغِيرٍ أَنْ يُنْقِذَ نَفْسَهُ إِذَا اسْتَطَاعَ. وبَعْدَهَا يُمْكِنُ لِلضُّبَّاطِ إِعَادَةُ تَجْمِيعِ الْأَجْزَاءِ الصَّغِيرَةِ مَعًا لِتَكْوِينِ الْجَيْشِ ثَانِيَةً. أَكَّدَ هنري لِنَفْسِهِ أَنَّ تَصَرُّفَهُ كَانَ تَصَرُّفًا حَكِيمًا.

فَكَّرَ هنري فِي رِفَاقِهِ الَّذِينَ ثَبَتُوا وَرَبِحُوا الْمَعْرَكَةَ؛ وزَادَتْ هَذِهِ الْفِكْرَةُ مِنْ شُعُورِه بِالْمَرَارَةِ؛ إِذْ بَدَا أَنْ حَمَاقَتَهُمْ قَدْ خَدَعَتْهُ. لقد ظَنَّ أَنَّهُ تَصَرَّفَ بِذَكَاءٍ عِنْدَمَا لَاذَ بِالْفِرَارِ، وَالْآنَ يَشْعُرُ بِغَضَبٍ شَدِيدٍ مِنْ رِفَاقِهِ الَّذِينَ لَمْ يَفْعَلُوا الْأَمْرَ ذَاتَهُ.

أَدْرَكَ هنري أَنَّ رِفَاقَهُ سَيَسْخَرُونَ مِنْهُ عِنْدَ عَوْدَتِهِ إِلَى الْمُعَسْكَرِ، وبَدَأَ يُشْفِقُ عَلَى نَفْسِهِ عِنْدَمَا فَكَّرَ فِي الْمُعَامَلَةِ السَّيِّئَةِ الَّتِي سَيَلْقَاهَا مِنْهُمْ. تَرَكَ الْحَقْلَ، وَاتَّجَهَ إِلَى بُقْعَةٍ كَثِيفَةٍ فِي الْغَابَةِ. أَرَادَ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنْ صَوْتِ الطَّلَقَاتِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي كانَتْ لَا تَزَالُ تُدَوِّي.

كَانَتِ الْأَرْضُ مُغَطَّاةً بِالْكُرُومِ وَالشُّجَيْرَاتِ وَالْأَشْجَارِ الْقَرِيبِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَشُقَّ طَرِيقَهُ عَبْرَهَا. جَرَحَتْ أَشْوَاكُ الشُّجَيْرَاتِ قَدَمَيْهِ، وَسَدَّتْ فُرُوعُ الْأَشْجَارِ الطَّرِيقَ أَمَامَهُ. لَمْ يَسْتَطِعْ السَّيْرَ فِي هُدُوءٍ دَاخِلَ الْغَابَةِ، بَلْ أَصْدَرَ جَلَبَةً شَدِيدَةً حَتَّى بَاتَ خَائِفًا مِنْ أَنْ يَسْمَعَهُ الْآخَرُونَ. ابْتَعَدَ كَثِيرًا دَاخِلَ الْغَابَةِ يَبْحَثُ عَنْ مَكَانٍ مُظْلِمٍ يُمْكِنُهُ الْبَقَاءُ فِيهِ وَحِيدًا. وبَعْدَ فَتْرَةٍ، خَفَتَ صَوْتُ إِطْلَاقِ النِّيرَانِ، وَانْطَلَقَتْ أَصْوَاتُ الْمَدَافِعِ بَعِيدًا. تَوَهَّجَتِ الشَّمْسُ وَسْطَ الْأَشْجَارِ، بَيْنَمَا أَصْدَرَتِ الْحَشَرَاتُ أَصْوَاتًا كَإِيقَاعِ الْمُوسِيقَى. لقد بَدَا وَكَأَنَّهَا تَصِرُّ بِأَسْنَانِهَا فِي تَنَاغُمٍ. قَرَعَ نَقَّارُ الْخَشَبِ جَانِبَ إِحْدَى الْأَشْجَارِ، وَمَرَّ طَائِرٌ فِي الْهَوَاءِ.

بَعِيدًا كَانَ طَنِينُ الْمَوْتِ، أَمَّا هُنَا فَلَا يَسْمَعُ هنري سِوَى أَصْوَاتِ الطَّبِيعَةِ.

وَسْطَ هَذَا الْمَشْهَدِ، شَعَرَ هنري أَنَّهُ أَفْضَلُ حَالًا. كَانَ يَشْعُرُ بِالسَّكِينَةِ. سَقَطَ كُوزُ صَنَوْبَرٍ مِنْ فَوْقِ شَجَرَةٍ، وَهَبَطَ بِجِوَارِ سِنْجَابٍ فَرَّ بَعِيدًا، ورَأَى هنري أَنَّ هَذَا هُوَ قَانُونُ الطَّبِيعَةِ. لَقَدْ أَدْرَكَ السِّنْجَابُ أَنَّ هُنَاكَ خَطَرًا يُحَدِّقُ بِهِ؛ فَهَرَبَ بَعِيدًا.

تَوَغَّلَ هنري فِي الْغَابَةِ، وَأَخِيرًا وَصَلَ إِلَى مَكَانٍ بَدَتْ فِيهِ الْأَغْصَانُ الْمُرْتَفِعَةُ الْمُقَوَّسَةُ وَكَأَنَّهَا تُشَكِّلُ كَنِيسَةً صَغِيرَةً. شَكَّلَتْ أَوْرَاقُ الصَّنَوْبَرِ بِسَاطًا بُنِّيًّا، وَكَانَ هُنَاكَ ضَوْءٌ خَافِتٌ.

تَوَقَّفَ عِنْدَ الْمَدْخَلِ مَصْدُومًا مِمَّا رَآهُ أَمَامَهُ.

كَانَ أَمَامَه جُثَّةُ رَجُلٍ يَسْتَنِدُ بِظَهْرِهِ إِلَى إِحْدَى الْأَشْجَارِ. كَانَ الرَّجُلُ يَرْتَدِي زِيًّا أَزْرَقَ اللَّوْنِ فِيمَا مَضَى، لَكِنَّهُ الْآنَ بَهَتَ حَتَّى صَارَ دَرَجَةً كَئِيبَةً مِنَ اللَّوْنِ الْأَخْضَرِ. تَغَيَّرَتْ عَيْنَا الرَّجُلِ اللَّتَانِ كَانَتَا تُحَدِّقَانِ فِي هنري إِلَى لَوْنٍ بَاهِتٍ مِثْلِ جَوَانِبِ السَّمَكَةِ. كَانَ فَمُهُ مَفْتُوحًا، وَتَغَيَّرَتْ شَفَتَاهُ اللَّتَانِ كَانَتَا حَمْرَاوَيْنِ يَوْمًا إِلَى لَوْنٍ أَصْفَرَ مُخِيفٍ. كَانَ النَّمْلُ الصَّغِيرُ يَزْحَفُ فَوْقَ بَشَرَةِ الرَّجُلِ الرَّمَادِيَّةِ، وَإِحْدَاهُنَّ تَحمِلُ كُتْلَةً مَا فَوْقَ شَفَتِهِ الْعُلْيَا.

أَطْلَقَ هنري صَرْخَةً عِنْدَمَا رَأى الْجُثَّةَ، ولَمْ يَسْتَطِعِ التَّحَرُّكَ أَوْ إِشَاحَةَ نَظَرِهِ بَعِيدًا عَنِ الرَّجُلِ. بَدَا وَكَأَنَّهُ تَحَوَّلَ إِلَى صَخْرَةٍ لِبِضْعِ دَقَائِقَ. حَدَّقَ فِي عَيْنَيِ الرَّجُلِ الْغَرِيبِ، وَبِبُطْءٍ وَضَعَ إِحْدَى يَدَيْهِ خَلْفَهُ وَأَسْنَدَهَا عَلَى إِحْدَى الْأَشْجَارِ، وَعَلَى وَضْعِهِ هَذَا أَخَذَ يَرْجِعُ إِلَى الْخَلْفِ خُطْوَةً خُطْوَةً، وَهُوَ لَا يَزَالُ يَنْظُرُ إِلَى الرَّجُلِ. كَانَ يَخْشَى لَوِ اسْتَدَارَ أَنْ تَقْفِزَ الْجُثَّةُ وَتُطَارِدَهُ.

اصْطَدَمَتِ الْأَغْصَانُ بهنري وَكَأَنَّهَا تُهَدِّدُهُ بِأَنْ تُسْقِطَهُ أَرْضًا. عَلِقَتْ قَدَمَاهُ فِي الْكُرُومِ، وَتَخَيَّلَ أَنَّهُ يَلْمِسُ الْجُثَّةَ، فَانْتَفَضَ فَزِعًا.

أَخِيرًا تَخَلَّصَ هنري مِنَ الْأَغْصَانِ وَالْكُرُومِ، وَهَرَبَ بَعِيدًا. لَمْ يَكُنْ يَنْظُرُ فِي أَيِّ اتِّجَاهٍ يَذْهَبُ، بَلِ اكْتَفَى بِالرَّكْضِ. فِي مُخَيِّلَتِهِ، كَانَتْ تُطَارِدُهُ صُورَةُ النَّمْلِ الْأَسْوَدِ الزَّاحِفِ فَوْقَ الْوَجْهِ الرَّمَادِيِّ.

بَعْدَ فَتْرَةٍ، تَوَقَّفَ هنري وَأَرْهَفَ السَّمْعَ. كَانَ يَلْهَثُ مِنْ أَثَرِ الْعَدْوِ. تَخَيَّلَ صَوْتًا غَرِيبًا يَصْدُرُ مِنْ حَلْقِ الرَّجُلِ الْمَيِّتِ وَيَصْرُخُ فِيهِ.

تَحَرَّكَتِ الْأَشْجَارُ خَلْفَهُ حَوْلَ الْجُثَّةِ مَعَ الرِّيَاحِ الْهَادِئَةِ، وَخَيَّمَ صَمْتٌ كَئِيبٌ عَلَى الْمَكَانِ.

الفصل العاشر

صَاحِبُ الثِّيَابِ الرَّثَّةِ

غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَتَوَقَّفَ ضَجِيجُ الْحَشَرَاتِ بَعْضَ الْوَقْتِ، وَوَسْطَ هَذَا السُّكُونِ، انْطَلَقَتْ فَجْأَةً أَصْوَاتٌ كَثِيرَةٌ مُتَدَاخِلَةٌ. تَوَقَّفَ هنري وَأَرْهَفَ السَّمْعَ. أَتَى صَوْتُ صِيَاحٍ مِنْ بَعِيدٍ، وَسَمِعَ هنري الصَّوْتَ الْمُدَوِّيَ لِإِطْلَاقِ النَّارِ وَانْطِلَاقِ الْمَدَافِعِ.

تَشَتَّتَ ذِهْنُ هنري فِي كُلِّ الِاتِّجَاهَاتِ. تَخَيَّلَ أَنَّ الْجَيْشَيْنِ لَا يَزَالَانِ يُحَارِبُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ. وَبَعْدَ أَنْ أرهف السَّمْعَ وَقْتًا طَوِيلًا، بَدَأَ يَجْرِي فِي اتِّجَاهِ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ. عَلِمَ هنري أَنَّهُ مِنَ الْغَرِيبِ أَنْ يَرْكُضَ بِاتِّجَاهِ الْمَعْرَكَةِ وَهُوَ الَّذِي بَذَلَ جُهْدًا بَالِغًا لِيَبْتَعِدَ عَنْهَا، لَكِنَّهُ أَخْبَرَ نَفْسَهُ أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ الْأَرْضُ وَالْقَمَرُ عَلَى وَشْكِ الِاصْطِدَامِ، فَسَيَصْعَدُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَى أَسْطُحِ مَنَازِلِهِم لِيُشَاهِدُوا حُدُوثَ ذَلِكَ. كَانَ لَدَيْهِ الشُّعُورُ نَفْسُهُ تِجَاهَ الْمَعْرَكَةِ؛ فَلَمْ يَشَأْ تَفْوِيتَ حَدَثٍ سَيَتَحَدَّثُ النَّاسُ عَنْهُ لِسَنَوَاتٍ تَالِيَةٍ.

جَالَ بِخَاطِرِ هنري وَهُوَ يَرْكُضُ أَنَّ الْمَعْرَكَةَ الَّتِي شَهِدَهَا لَمْ تَكُنْ سِوَى إِحْمَاءٍ. عِنْدَمَا سَمِعَ أَصْوَاتَ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي تَدُورُ الْآنَ، بَدَأَ يَشُكُّ فِي أَنَّهُ قَدْ شَهِدَ قِتَالًا مِنْ قَبْلُ. كَادَ الْأَمْرِيكُونُ مُضْحِكًا؛ فَقَدْ أَخَذَ هُوَ وَرِفَاقُهُ الْعَدُوَّ عَلَى مَحْمَلِ الْجِدِّ، وَتَخَيَّلُوا أَنَّهُمْ سَيَحْسِمُونَ الْمَعْرَكَةَ. ظَنُّوا جَمِيعًا أَنَّهُمْ سَيُصْبِحُونَ أَبْطَالًا، لَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَذْكُرَهُمْ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

أَسْرَعَ هنري إِلَى الْأَمَامِ مُتَخَيِّلًا كُلَّ مَشَاهِدِ الْمَعْرَكَةِ. حَاوَلَتْ أَغْصَانُ الْأَشْجَارِ وَالْكُرُومِ رَدْعَهُ وَإِعَاقَةَ طَرِيقِهِ، لَكِنَّهُ تَجَاوَزَهَا كُلَّهَا، وَسُرْعَانَ مَا رَأَى حَوَاجِزَ الدُّخَانِ الرَّمَادِيَّةَ الْمُرْتَفِعَةَ. فَزِعَ هنري عِنْدَمَا سَمِعَ صَوْتَ الْمَدَافِعِ مِنْ حَوْلِهِ، وَأَخَذَ يُحَدِّقُ النَّظَرَ فِي اتِّجَاهِ الْمَعْرَكَةِ.

وأَخِيرًا، وَاصَلَ هنري طَرِيقَهُ إِلَى الْأَمَامِ، وبَدَتْ أَصْوَاتُ الْمَعْرَكَةِ مِثْلَ صَرِيرِ آلَةٍ مُرَوِّعَةٍ. كَانَ سَمَاعُ تِلْكَ الْأَصْوَاتِ رَائِعًا، لَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَقْتَرِبَ أَكْثَرَ لِيَرَى مَا يَحْدُثُ.

وَصَلَ هنري إِلَى طَرِيقٍ بِهِ حَشْدٌ مِنَ الرِّجَالِ الْمُصَابِينَ يَسِيرُونَ بِبُطْءٍ بَعِيدًا عَنْ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ. كَانُوا يَكِيلُونَ الشَّتَائِمَ، وَيَتَأَوَّهُونَ، وَيَبْكُونَ. كَانَ أَحَدُهُمْ يَحْمِلُ حِذَاءً مَلِيئًا بِالدِّمَاءِ، وَأَخَذَ يَقْفِزُ مِثْلَ تِلْمِيذٍ فِي الْمَدْرَسَةِ وَيَضْحَكُ كَالْمَجْنُونِ، بَيْنَمَا كَانَ آخَرُ يُغَنِّي بِصَوْتٍ عَالٍ مُرْتَعِشٍ. وكَانَ الْكَثِيرُ مِنَ الرِّجَالِ غَاضِبِينَ، بَيْنَمَا سَاعَدَ بَعْضُهُمْ فِي حَمْلِ ضَابِطٍ كَانَ يَصِيحُ بِالْأَوَامِرِ فِي الرِّجَالِ الْقَرِيبِينَ مِنْهُ.

انْضَمَّ هنري إِلَى هَذَا الْحَشْدِ وَسَارَ مَعَهُمْ. سَارَ رَجُلٌ رَثُّ الثِّيَابِ بِهُدُوءٍ إِلَى جِوَارِ هنري. كَانَ مُغَطًّى بِالْغُبَارِ وَالدِّمَاءِ، وَلَدَيْهِ بُقَعُ بَارُودٍ تُغَطِّي شَعْرَهُ إِلَى حِذَائِهِ، وكَانَ يَسْتَمِعُ إِلَى رَقِيبٍ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ. وبَعْدَ بُرْهَةٍ اقْتَرَبَ الرَّجُلُ ذُو الثِّيَابِ الرَّثَّةِ مِنْ هنري مُحَاوِلًا التَّحَدُّثَ مَعَهُ. رَأَى

هنري أنَّ الرَّجُلَ مُصَابٌ بِجُرْحَيْنِ؛ وَاحِدٌ فِي ذِرَاعِهِ وَالآخَرُ فِي رَأسِهِ ومَرْبُوطٌ بِقِطْعَةِ قُمَاشٍ مُمْتَلِئَةٍ بِالدِّمَاءِ. كَانَ صَوْتُ الرَّجُلِ ذِي الثِّيَابِ الرَّثَّةِ رَقِيقًا، وَبَدَتْ عَيْنَاهُ وَكَأَنَّهُمَا تَتَوَسَّلَانِ شَيْئًا.

سَأَلَ الرَّجُلُ: «كَانَتْ مَعْرَكَةً جَيِّدَةً، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

رَفَعَ هنري — الَّذِي كَانَ مُسْتَغْرِقًا فِي التَّفْكِيرِ — بَصَرَهُ إِلَى الْوَجْهِ الْبَائِسِ الْمُغَطَّى بِالدِّمَاءِ، وَقَالَ: «مَاذَا؟»

سَأَلَ الرَّجُلُ: «كَانَتْ مَعْرَكَةً جَيِّدَةً، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

قَالَ هنري: «بلى.» وَبَدَأَ يُسْرِعُ فِي السَّيْرِ، لَكِنَّ الرَّجُلَ لَحِقَهُ.

قَالَ الرَّجُلُ: «لَمْ أَرَ رِجَالًا يُقَاتِلُونَ هَكَذَا مِنْ قَبْلُ، يَا لَهَا مِنْ مَعْرَكَةٍ! كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ فِتْيَانَنَا سَيَتَحَلَّوْنَ بِالْقُوَّةِ مَا إِنْ يَبْدَأُ الْقِتَالُ. كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الْأُمُورَ سَتَئُولُ لِمَا آلَتْ إِلَيْهِ. لَا يُمْكِنُ هَزِيمَةُ فِتْيَانِنَا يَا سَيِّدِي. إِنَّهُمْ مُحَارِبُونَ لَا شَكَّ.»

نَظَرَ الرَّجُلُ إِلَى هنري عِدَّةَ مَرَّاتٍ لِيُشَجِّعَهُ عَلَى الْحَدِيثِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ، فَوَاصَلَ الرَّجُلُ حَدِيثَهُ.

قال: «كُنْتُ أَتَحَدَّثُ مَعَ فَتًى مِنْ جورجيا فِي جَيْشِ الْعَدُوِّ، قَالَ إِنَّهُ سَيَهْرُبُ مَا إِنْ يَبْدَأُ إِطْلَاقُ النِّيرَانِ، فَقُلْتُ إِنَّنَا لَنْ نَفْعَلَ. قُلْتُ رُبَّمَا يَفِرُّ رِجَالُهُ، فَضَحِكَ. حَسَنًا، لَمْ يَفِرَّ أَحَدٌ الْيَوْمَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ حَارَبَ الْجَمِيعُ بِأَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُونَ مِنْ جُهْدٍ.»

وارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ نَظْرَةُ حُبٍّ لِلْجَيْشِ. سَأَلَ الرَّجُلُ هنري بَعْدَ بُرْهَةٍ: «أَيْنَ أُصِبْتَ يَا فَتى؟»

شَعَرَ هنري بِالذُّعْرِ فَوْرًا عِنْدَ سَمَاعِ السُّؤَالِ.

سَأَلَ هنري: «مَاذَا؟»

فَسَأَلَهُ الرَّجُلُ ثَانِيَةً: «أَيْنَ أُصِبْتَ؟»

رَدَّ هنري: «لِمَاذا؟ ... أَنَا ... أَنَا ... إِنَّهُ ... لِمَاذَا؟ أَنَا ...»

اسْتَدَارَ هنري فَجْأَةً، وَأَخَذَ يَرْكُضُ وَسْطَ الْحَشْدِ. اكْتَسَى وَجْهُهُ بِاللَّوْنِ الْأَحْمَرِ، وَالْتَقَطَتْ أَصَابِعُهُ فِي تَوَتُّرٍ أَحَدَ أَزْرَارِهِ. ظَلَّ مُنَكَّسَ الرَّأْسِ يُحَدِّقُ فِي الزِّرِّ كَأَنَّ بِهِ خَطْبًا مَا.

الفصل الحادي عشر

جيم كونكلن

تَرَاجَعَ هنري حَتَّى مُؤَخِّرَةِ الْحَشْدِ، وَظَلَّ مُتَوَارِيًا عَنِ الْأَنْظَارِ حَتَّى اخْتَفَى الْجُنْدِيُّ رَثُّ الثِّيَابِ، ثُمَّ بَدَأَ يَسِيرُ مَعَ الْآخَرِينَ. لَكِنَّهُ كَانَ مُحَاطًا بِالْجَرْحَى. السُّؤَالُ الَّذِي طَرَحَهُ عَلَيْهِ الْجُنْدِيُّ رَثُّ الثِّيَابِ جَعَلَهُ يَشْعُرُ أَنَّ عَارَهُ سَيَكُونُ مَلْحُوظًا لِلْجَمِيعِ. كَانَ هنري يَنْظُرُ أَحْيَانًا إِلَى الرِّجَالِ الْآخَرِينَ بِعَيْنٍ مِلْؤُهَا الْحَسَدُ. كَانَ يَتَمَنَّى لَوْ كَانَ لَدَيْهِ جُرْحٌ هُوَ الْآخَرُ؛ شَارَةٌ حَمْرَاءُ تَدُلُّ عَلَى شَجَاعَتِهِ.

كَانَ هُنَاكَ رَجُلٌ مُصَابٌ عَلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ. حَاوَلَ الرِّجَالُ الْآخَرُونَ مُسَاعَدَتَهُ، لَكِنَّهُ أَبْعَدَهُمْ وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَتْرُكُوهُ وَشَأْنَهُ. كَانَ وَجْهُهُ رَمَادِيًّا، وَشَفَتَاهُ مُغْلَقَتَيْنِ بِإِحْكَامٍ. تَحَرَّكَ الرَّجُلُ بِصُعُوبَةٍ وَكَأَنَّهُ يُحَاوِلُ أَنْ يَحْمِيَ جُرُوحَهُ. بَدَا أَنَّهُ يَبْحَثُ أَثْنَاءَ سَيْرِهِ عَنْ مَكَانٍ يَتَوَقَّفُ فِيهِ. بَدَا وَكَأَنَّهُ شَخْصٌ يَبْحَثُ عَنْ مَقْبَرَةٍ.

شَيْءٌ مَا فِي الطَّرِيقَةِ الَّتِي لَوَّحَ بِهَا الرَّجُلُ إِلَى الْجُنُودِ الْآخَرِينَ لِيَبْتَعِدُوا عَنْهُ أَدْهَشَ هنري، فَصَاحَ فِي فَزَعٍ، ثم وَضَعَ يَدَهُ عَلَى ذِرَاعِ الرَّجُلِ، وَعِنْدَمَا الْتَفَتَ إِلَيْهِ، صَاحَ هنري: «جيم كونكلن!»

ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِ جيم ابْتِسَامَةٌ صَغِيرَةٌ، وَقَالَ: «مَرْحَبًا يَا هنري.»

قَالَ هنري: «آهٍ يَا جيم! آهٍ يَا جيم! آهٍ يَا جيم!»

سَأَلَهُ جيم: «أَيْنَ كُنْتَ يَا هنري؟» وَمَدَّ يَدَيْهِ: «كُنْتُ قَلِقًا عَلَيْكَ.»

لَمْ يَسْتَطِعْ هنري أَنْ يَقُولَ شَيْئًا سِوَى: «آهٍ يَا جيم!»

قَالَ جيم: «أَتَعْلَمُ؟ لَقَدْ كُنْتُ هُنَاكَ، يَا لَهُ مِنْ سيركٍ. لَقَدْ أُصِبْتُ، لَقَدْ أُصِبْتُ. الْوَضْعُ سَيِّئٌ لِلْغَايَةِ.»

وَبَيْنَمَا وَاصَلَ الصَّدِيقَانِ سَيْرَهُمَا، بَدَا أَنَّ الْخَوْفَ قَدْ غَلَبَ جيم فَجْأَةً، فَأَمْسَكَ بِذِرَاعِ هنري وَبَدَأَ يَتَحَدَّثُ بِصَوْتٍ هَامِسٍ مُرْتَجِفٍ. رَأَى هنري أَنَّ صَدِيقَهُ وَاهِنٌ لِلْغَايَةِ.

قال جيم: «سَأُخْبِرُكَ عَمَّا يُقْلِقُنِي يَا هنري، أَخَافُ أَنْ أَسْقُطَ أَرْضًا، فَإِمَّا يَتْرُكُونَنِي هُنَا، وَإِمَّا تَدْهَسُنِي عَرَبَاتُ الْمِدْفَعِيَّةِ.»

صَاحَ هنري: «سَأَعْتَنِي بِكَ يَا جيم! أُقْسِمُ أَنِّي سَأَفْعَلُ.»

تَشَبَّثَ جيم بِذِرَاعِ هنري.

سَأَلَ جيم: «لَطَالَمَا كُنْتُ صَدِيقًا مُخْلِصًا لَكَ يَا هنري، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ لَطَالَمَا كُنْتُ شَخْصًا جَيِّدًا، أَلَيسَ كَذَلِكَ؟ لَسْتُ أَطْلُبُ الْكَثِيرَ، أَلَيسَ كَذَلِكَ؟ فَقَطِ اسْحَبْنِي بَعِيدًا عَنِ الطَّرِيقِ، سَأَرُدُّهَا لَكَ يَا هنري.»

لَمْ يَسْتَطِعْ هنري أَنْ يَقُولَ شَيْئًا، وَسَارَ جيم مُبْتَعِدًا عَنْهُ.

تَبِعَ هنري صَدِيقَهُ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ سَمِعَ صَوْتًا يَأْتِي مِنْ وَرَاءِ كَتِفِهِ، وَعِنْدَمَا اسْتَدَارَ، إِذَا بِهِ يَجِدُ الْجُنْدِيَّ رَثَّ الثِّيَابِ.

قَالَ الْجُنْدِيُّ: «يَنْبَغِي أَنْ تُبْعِدَهُ عَنِ الطَّرِيقِ أَيُّهَا الرَّفِيقُ؛ فَهُنَاكَ عَرَبَةٌ قَادِمَةٌ، وَسَوْفَ تَدْهَسُهُ.»

هُرِعَ هنري إِلَى صَدِيقِهِ، وَحَاوَلَ سَحْبَهُ مِنَ الطَّرِيقِ. حَاوَلَ جيم أَنْ يَبْتَعِدَ لَحْظَةً، ثُمَّ قَالَ: «أَإِلَى الْحُقُولِ؟»

بَدَأَ جيم يَرْكُضُ وَسْطَ الْحَشَائِشِ، وَهنري يَرْكُضُ وَرَاءَهُ. صَاحَ هنري عَلَيْهِ كَيْ يَتَوَقَّفَ، لَكِنَّهُ وَاصَلَ الرَّكْضَ. شَعَرَ هنري بِالدَّهْشَةِ لِأَنَّ صَدِيقَهُ لَا يَزَالُ يَمْتَلِكُ كُلَّ هَذِهِ الْقُوَّةِ.

سَأَلَهُ هنري بِصَوْتٍ مُرْتَعِدٍ: «إِلَى أَيْنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ يَا جيم؟ فِيمَ تُفَكِّرُ؟ مَاذَا تَفْعَلُ؟»

اسْتَدَارَ جيم، وَقَالَ: «اتْرُكْنِي وَشَأْنِي، أَلَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟»

سَأَلَهُ هنري فِي ذُهُولٍ: «لِمَاذَا يَا جيم؟ مَا خَطْبُكَ؟»

اسْتَدَارَ جيم، وَرَكَضَ إِلَى الْأَمَامِ، فَتَبِعَهُ هنري وَالْجُنْدِيُّ رَثُّ الثِّيَابِ تَنْتَابُهُمَا مَشَاعِرُ الدَّهْشَةِ وَالْخَوْفِ. بَدَا الْأَمْرُ وَكَأَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ طَقْسٍ دِينِيٍّ، وَأَخِيرًا رَأَيَا جيم يَتَوَقَّفُ فِي مَكَانِهِ. بَدَا وَكَأَنَّهُ يَنْتَظِرُ بِأَنَاةٍ شَيْئًا جَاءَ لِيَلْتَقِيَهُ.

خَيَّمَ الصَّمْتُ عَلَى الجَمِيعِ.

وَأَخِيرًا، أَخَذَ صَدْرُ جيم يَنْتَفِضُ، وَسَقَطَ أَرْضًا.

اتَّجَهَ هنري بِغَضَبٍ مُفَاجِئٍ نَحْوَ أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ. لَوَّحَ بِقَبْضَةِ يَدِهِ، وَبَدَا عَلَى وَشْكِ الصُّرَاخِ.

فَوْقَهُ، كَانَ قُرْصُ الشَّمْسِ الْأَحْمَرُ مُلْتَصِقًا فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهُ رُقَاقَةٌ مِنَ البَسْكَوِيتِ.

الفصل الثاني عشر

سُؤَالُ الْجُنْدِيِّ رَثِّ الثِّيَابِ

وَقَفَ الرَّجُلُ رَثُّ الثِّيَابِ يُفَكِّرُ.

وَأَخِيرًا، قَالَ بِصَوْتٍ مَمْزُوجٍ بِالدَّهْشَةِ: «يَا لَهُ مِنْ مَشْهَدٍ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ أَتَعَجَّبُ مِنْ أَيْنَ جَاءَ بِكُلِّ تِلْكَ الْقُوَّةِ! لَمْ أَرَ مِنْ قَبْلُ رَجُلًا يَجْرِي هَكَذَا بَعْدَ أَنْ أُصِيبَ بِضْعَ مَرَّاتٍ! كَانَ أَمْرًا غَرِيبًا!»

أَرَادَ هنري أَنْ يَصْرُخَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصْدِرَ أَيَّ صَوْتٍ. وَقَفَ الرَّجُلُ ذُو الثِّيَابِ الرَّثَّةِ وَرَاقَبَهُ.

قَالَ الرَّجُلُ بَعْدَ بُرْهَةٍ: «انْظُرْ يَا رَفِيقِي، لَقَدْ رَحَلَ صَدِيقُكَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ مِنَ الْأَفْضَلِ لَكَ أَنْ تَهْتَمَّ بِنَفْسِكَ، لَنْ يَكْتَرِثَ أَحَدٌ لِإِزْعَاجِ صَدِيقِكَ بَعْدَ الْآنَ، وَعَلَيَّ أَنْ أَقُولَ إِنَّنِي لَا أَتَمَتَّعُ بِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ هَذِهِ الْأَيَّام.»

نَظَرَ هنري إِلَى الرَّجُلِ بِسُرْعَةٍ، وَرَأَى أَنَّهُ كَانَ يَتَرَنَّحُ عَلَى قَدَمَيْهِ، وَأَنَّ وَجْهَهُ تَغَيَّرَ إِلَى لَوْنٍ أَزْرَقَ غَرِيبٍ.

صَاحَ هنري: «لَسْتَ أَنْتَ أَيْضًا، لَنْ تَـ...»

لَوَّحَ الرَّجُلُ بِيَدِهِ.

قَالَ الرجل: «لَا، كُلُّ مَا أَحْتَاجُهُ هُوَ حِسَاءُ الْبَازِلَّاءِ، وَفِرَاشٌ وَثِيرٌ.»

بَدَآ يَسِيرَانِ عَائِدَيْنِ إِلَى الطَّرِيقِ. تَحَرَّكَا بِهُدُوءٍ بَعْضَ الْوَقْتِ، وَأَخِيرًا، قَالَ الرَّجُلُ رَثُّ الثِّيَابِ: «أَتَعْلَمُ يَا رَفِيقِي؟ بَدَأْتُ أَشْعُرُ بِتَدَهْوُرٍ شَدِيدٍ.»

تَأَوَّهَ هنري وَتَسَاءَلَ هَلْ سَيَشْهَدُ عَرْضًا مُرَوِّعًا آخَرَ، لَكِنَّ صَدِيقَهُ الْجَدِيدَ طَمْأَنَهُ.

قَالَ الرَّجُلُ: «أُوه، لَمْ يَحِنِ الْوَقْتُ بَعْدُ. لَدَيَّ الْكَثِيرُ لِأَفْعَلَهُ. عَلَيْكَ أَنْ تَرَى كَمْ طِفْلٍ لَدَيَّ!»

لَمَحَ هنري ظِلَّ ابْتِسَامَةٍ عَلَى وَجْهِ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ يَمْزَحُ.

سَارَا مَسَافَةً أَطْوَلَ، وَتَحَدَّثَ الرَّجُلُ ذُو الثِّيَابِ الرَّثَّةِ عَنْ مَسْقَطِ رَأْسِهِ، بَعْدَهَا قَالَ بِهُدُوءٍ بَالِغٍ: «لَا أَظُنُّ أَنِّي أَسْتَطِيعُ مُوَاصَلَةَ السَّيْرِ، وَأَنْتَ أَيْضًا تَبْدُو مُرْهَقًا جِدًّا، أُرَاهِنُ أَنَّكَ أَسْوَأُ حَالًا مِمَّا تَظُنُّ. عَلَيْكَ الِاعْتِنَاءُ بِجُرْحِكَ؛ لَيْسَ مِنَ الْجَيِّدِ أَنْ تَتْرُكَ هَذِهِ الْجُرُوحَ مِنْ دُونِ عِنَايَةٍ. أَيْنَ جُرْحُكَ؟»

كَانَ هنري يَأمُلَ ألّا يُكَرِّرُ الرَّجُلَ هَذَا السُّؤَالَ ثَانِيَةً. أَطْلَقَ صَرْخَةَ غَضَبٍ، وَأَشَاحَ بِيَدِهِ فِي حَنَقٍ.

قَالَ هنري مُحْتَدًّا: «كُفَّ عَنْ إزْعَاجِي.» الْخِزْيُ الَّذِي كَانَ يَشْعُرُ بِهِ جَرَّاءَ مَا فَعَلَهُ جَعَلَهُ يَصْرُخُ فِي وَجْهِ صَدِيقِهِ الْوَحِيدِ الآنَ.

قَالَ الرَّجُلُ بِصَوْتٍ يَشُوبُهُ الْحُزْنُ: «يَعْلَمُ اللهُ أَنِّي لَا أُرِيدُ مُضَايَقَةَ أَحَدٍ. يَعْلَمُ اللهُ أَنَّ لَدَيَّ مَا يَكْفِي مِنَ الْقَلَقِ.»

تَحَدَّثَ هنري — الَّذِي كَانَ يُفَكِّرُ وَيَرْمُقُ الرَّجُلَ بِنَظْرَةِ كَرَاهِيَةٍ — بِنَبْرَةٍ حَادَّةٍ.

قَالَ هنري: «إِلَى اللِّقَاءِ.»

نَظَرَ الرَّجُلُ ذُو الثِّيَابِ الرَّثَّةِ إِلَيْهِ فِي ذُهُولٍ.

سَأَلَهُ مُتَرَدِّدًا: «لِمَاذَا؟ ... لِمَاذَا يَا صَدِيقِي؟ إِلَى أَيْنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ؟» بَدَا رَأْسُهُ غَارِقًا فِي الْأَفْكَارِ. «الْآنَ ... الْآنَ ... انْظُرْ ... هُنَا، أَنْتَ ... الْآنَ ... لَنْ يَحْدُثَ ذَلِكَ ... لَنْ يُجْدِيَ هَذَا نَفْعًا، إِلَى أَيْنَ؟ ... إِلَى أَيْنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ؟»

أَشَارَ هنري قَائِلًا: «إِلَى هُنَاكَ.»

قَالَ الرَّجُلُ مُتَلَعْثِمًا: «حَسَنًا، انْظُرِ الْآنَ ... هُنَا ... الْآنَ.» كَانَ رَأْسُهُ يَتَدَلَّى إِلَى الْأَمَامِ، وَقَالَ مُغَمْغِمًا: «لَنْ يَنْجَحَ ذَلِكَ الْآنَ. أَنَا أَعْرِفُكَ، تَوَدُّ أَنْ تَذْهَبَ وَلَدَيْكَ جُرْحٌ غَائِرٌ. هَذَا لَيسَ جَيِّدًا، عَلَيْكَ أَنْ تَتْرُكَنِي لِأَعْتَنِيَ بِكَ. لَيسَ جَيِّدًا أَنْ تَذْهَبَ ... تَسِيرَ ... بِجُرْحٍ بَالِغٍ ... لَيسَ ... لَيسَ جَيِّدًا ... لَيسَ جَيِّدًا.»

تَسَلَّقَ هنري أَحَدَ الأَسْيِجَةِ، وَبَدَأَ يَرْكُضُ بَعِيدًا. سَمِعَ صَوْتَ الرَّجُلِ يُنَادِيهِ، لَكِنَّهُ وَاصَلَ الابْتِعَادَ. وبَعْدَ أَنِ ابْتَعَدَ مَسَافَةً، اسْتَدَارَ فَرَأَى الرَّجُلَ يَهِيمُ وَسْطَ الْحَقْلِ.

تَمَنَّى هنري لَوْ أَنَّهُ أُصِيبَ فِي الْمَعْرَكَةِ. السُّؤَالُ الْبَسِيطُ الَّذِي وَجَّهَهُ الرَّجُلُ إِلَيْهِ كَانَ مِثْلَ الْجُرْحِ. أَدْرَكَ هنري أَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ إِخْفَاءَ سِرِّهِ. سَيَعْلَمُ الْجَمِيعُ أَنَّهُ فَرَّ مِنَ الْمَعْرَكَةِ. لَمْ يَسْتَطِعْ حَتَّى أَنْ يَحْمِيَ نَفْسَهُ مِنَ الأَسْئِلَةِ الْبَسِيطَةِ.

الفصل الثالث عشر

فُرْصَةٌ ثَانِيَةٌ لِلانْضِمَامِ إِلَى الْمَعْرَكَةِ

انْتَبَهَ هنري فَجْأَةً إِلَى أَنَّ هَدِيرَ الْمَعْرَكَةِ كَانَ يَزْدَادُ شَيْئًا فَشَيْئًا. مَرَّتْ فَوْقَهُ سُحُبٌ بُنِّيَّةٌ كَبِيرَةٌ، وَاقْتَرَبَ الضَّجِيجُ أَكْثَرَ. وعِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى قِمَّةِ أَحَدِ التِّلَالِ، رَأَى أَنَّ الطَّرِيقَ قَدِ امْتَلَأَ بِالْعَرَبَاتِ الَّتِي تَجُرُّهَا الْخُيُولُ، وَبِالرِّجَالِ. كَانَ الْخَوْفُ يُحَرِّكُ الْجَمِيعَ.

شَعَرَ هنري بِالرَّاحَةِ عِنْدَمَا رَأَى هَذَا الْمَشْهَدَ. كَانَ الْجَمِيعُ يَفِرُّونَ. رُبَّمَا لَمْ يَكُنْ هو سَيِّئًا إِلَى هَذَا الْحَدِّ عَلَى أَيِّ حَالٍ. جَلَسَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَشَاهَدَ الْجَمِيعَ يَمُرُّونَ مِنْهُ. كَانُوا يَفِرُّونَ مِثْلَ حَيَوَانَاتٍ صَغِيرَةٍ مُنْزَعِجَةٍ، وَوَجَدَ هنري بَعْضَ السَّعَادَةِ فِي مُشَاهَدَةِ تِلْكَ الْمَسِيرَةِ الْهَمَجِيَّةِ.

سُرْعَانَ مَا ظَهَرَتْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ جُنُودِ الْمُشَاةِ عَلَى الطَّرِيقِ؛ كَانُوا يَتَحَرَّكُونَ بِسُرْعَةٍ وَيَدُورُونَ حَوْلَ كُلِّ مَا يُصَادِفُهُمْ فِي الطَّرِيقِ. كَانَ هَؤُلَاءِ الْجُنُودُ يَتَوَجَّهُونَ نَحْوَ قَلْبِ الْمَعْرَكَةِ، وَكَانُوا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِمُوَاجَهَةِ انْدِفَاعِ الْعَدُوِّ الْمُتَحَمِّسِ. اكْتَسَتْ وُجُوهُهُمْ بِمَلَامِحِ الْجِدِّ، وَلَمَسَ هنري شُعُورَهُمْ بِالْأَهَمِّيَّةِ.

عِنْدَمَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ، عَادَ إِلَيْهِ الشُّعُورُ بِالْحُزْنِ؛ شَعَرَ وَكَأَنَّهُ يُشَاهِدُ صَفًّا مِنَ الْجُنُودِ وَقَعَ الِاخْتِيَارُ عَلَيْهِمْ خُصُوصًا لِيَكُونُوا أَبْطَالًا. لَنْ يَكُونَ وَاحِدًا مِنْهُمْ أَبَدًا. كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَبْكِيَ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ.

تَمَنَّى هنري لَوِ اسْتَطَاعَ أَنْ يُصْبِحَ بَطَلًا، وَلِلَحْظَةٍ كَانَ عَلَى وَشْكِ الْقِيَامِ وَالِانْضِمَامِ إِلَيْهِمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى الْمَعْرَكَةِ، لَكِنَّ الصُّعُوبَاتِ الْمُحِيطَةَ بِوَضْعِهِ بَدَأَتْ تَثْنِيهِ عَنْ عَزْمِهِ، وَأَصَابَهُ التَّرَدُّدُ.

لَمْ يَكُنْ يَحْمِلُ بُنْدُقِيَّةً، لَكِنَّ هُنَاكَ الْكَثِيرَ مِنَ الْبَنَادِقِ حَوْلَهُ، وَيُمْكِنُهُ الْتِقَاطُ إِحْدَاهَا. فَكَّرَ أَيْضًا أَنَّهُ سَيَكُونُ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيْهِ الْعُثُورُ عَلَى كَتِيبَتِهِ مَرَّةً أُخْرَى، لَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ يَسْتَطِيعُ الْقِتَالَ مَعَ أَيِّ كَتِيبَةٍ أُخْرَى. بَدَأَ هنري يَتَحَرَّكُ إِلَى الْأَمَامِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا يُقَاوِمُ مَخَاوِفَهُ.

وفِي النِّهَايَةِ تَغَلَّبَتِ اعْتِرَاضَاتُ هنري عَلَى شَجَاعَتِهِ. لَمْ يَكُنْ مُنْزَعِجًا لِلْغَايَةِ مِنْ قَرَارِهِ. فعِنْدَمَا فَكَّرَ فِيهِ رَأَى أَنَّ الْمُشْكِلَاتِ الَّتِي يُوَاجِهُهَا عَوِيصَةٌ حَقًّا؛ وَالْآنَ وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ بَدَأَتْ مُشْكِلَاتٌ أُخْرَى تُثِيرُ انْزِعَاجَهُ.

كَانَ يُعَانِي ظَمَأً شَدِيدًا. كَانَ وَجْهُهُ جَافًّا حَتَّى إِنَه شَعَرَ وَكَأَنَّ بَشَرَتَهُ سَتَتَشَقَّقُ. كُلُّ عَظْمَةٍ فِي جَسَدِهِ كَانَتْ تُؤْلِمُهُ، وَقَدَمَاهُ كَانَتَا مُتَقَرِّحَتَيْنِ. آلَمَتْهُ مَعِدَتُهُ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ، وَأَصْبَحَ لَا يَسْتَطِيعُ الرُّؤْيَةَ بِوُضُوحٍ. أَدْرَكَ هنري أَنَّهُ لَنْ يَكُونَ بَطَلًا أَبَدًا. تَأَوَّهَ مِنْ فَرْطِ الْحُزْنِ وَهَامَ عَلَى وَجْهِهِ بَعِيدًا.

ظَلّ هنري قَرِيبًا مِنْ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ. كَانَتْ لَدَيْهِ رَغْبَةٌ كَبِيرَةٌ فِي رُؤْيَةِ الْقِتَالِ وَاسْتِطْلَاعِ الْأَخْبَارِ. كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَعْلَمَ لِمَنْ سَيَكُونُ النَّصرُ.

فَكَّرَ هنري أَنَّهُ فِي حَالَةِ هَزِيمَةِ جَيْشِهِ، سَيَصُبُّ ذَلِكَ فِي مَصْلَحَتِهِ. لقد ظَنَّ أَنَّ الْعَدِيدَ مِنَ الرِّجَالِ الشُّجْعَانِ سَيَلُوذُونَ بِالْفِرَارِ إِذَا مَا دَحَرَهُمُ الْعَدُوُّ، وَحِينَهَا سَيَكُونُ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ، ولَنْ يَعْرِفَ أَحدٌ أَنَّهُ قَدْ لَاذَ بِالْفِرَارِ قَبْلَ ذَلِكَ.

إِذَا خَسِرَ جَيْشُهُ الْحَرْبَ، فَسَيَكُونُ هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ قَدْ فَعَلَ الصَّوَابَ بِهَرَبِهِ. سَيُثْبِتُ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ قَادِرًا عَلَى اسْتِشْرَافِ مَا سَيَحْدُثُ، وَكَأَنَّهُ يَستَطِيعُ التَّنَبُّؤَ بِالْمُسْتَقْبَلِ. كَانَ لِهَذَا الدَّلِيلِ أَهَمِّيَّةٌ كُبْرَى لَدَى هنري؛ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَقْبَلُ فِكْرَةَ أَنَّهُ قَدْ فَعَلَ شَيْئًا مُشِينًا.

أَمَّا إِذَا انْتَصَرَ الْجَيْشُ، فَسَيَقَعُ هنري فِي مَأْزِقٍ. كَانَ يُدْرِكُ أَنَّ التَّفْكِيرَ فِي أُمُورٍ كَهَذِهِ أَمْرٌ بَغِيضٌ، وَنَعَتَ نَفْسَهُ بِالْوَغْدِ لِمُجَرَّدِ التَّفْكِيرِ فِي ذَلِكَ.

ثُمَّ جَالَتْ بِخَاطِرِ هنري فِكْرَةٌ أُخْرَى؛ فصَحِيحٌ أَنَّ هَزِيمَةَ جَيْشِهِ سَتُنْقِذُهُ مِنْ فَعْلَتِهِ، لَكِنَّهُ قَرَّرَ أَنَّهُ مِنْ غَيْرِ الْمُجْدِي التَّفْكِيرَ فِي ذَلِكَ الِاحْتِمَالِ. فقد كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ جَيْشَهُ لَنْ يُهْزَمَ أَبَدًا.

فَكَّرَ هنري فِي اخْتِلَاقِ قِصَّةٍ جَيِّدَةٍ يَقُصُّهَا عَلَى مَسَامِعِ الْجُنُودِ الْآخَرِينَ فِي كَتِيبَتِهِ. فَكَّرَ فِي أُمُورٍ عَدِيدَةٍ، لَكِنَّهَا جَمِيعًا كَانَتْ ضَعِيفَةً لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ تَصْدِيقُهَا.

تَخَيَّلَ مَشْهَدَ أَفْرَادِ الْكَتِيبَةِ كُلِّهِمْ وَهُمْ يَسْخَرُونَ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ فَرَّ مِنَ الْمَعْرَكَةِ.

سَيَسْأَلُونَ: «أَيْنَ هنري فليمنج؟ لَقَدْ هَرَبَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ يَا إِلَهِي!»

تَخَيَّلَ هنري الْجَمِيعَ يُحَدِّقُونَ فِيهِ بِنَظَرَاتٍ مِلْؤُهَا الْكَرَاهِيَةُ أَيْنَمَا ذَهَبَ فِي الْمُعَسْكَرِ. سَيَضْحَكُ الْجَمِيعُ مِنْهُ بِأُسْلُوبٍ دَنِيءٍ، وَسَيَكُونُ مَحَطَّ سُخْرِيَةِ الْجَمِيعِ.

الفصل الرابع عشر

إِصَابَةُ حَرْبٍ

مَا إِنِ اخْتَفَى الْجُنُودُ الَّذِينَ كَانُوا يَسِيرُونَ عَلَى الطَّرِيقِ عَنِ الْأَنْظَارِ حَتَّى رَأَى هنري كَثِيرِينَ آخَرِينَ قَادِمِينَ مِنَ الْغَابَاتِ وَعَبْرَ الْحُقُولِ. أَدْرَكَ هنري أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْرُبُونَ إِنْقَاذًا لِحَيَاتِهِمْ. انْدَفَعُوا بِجِوَارِهِ كَقَطِيعٍ مِنَ الْجَامُوسِ الْمَذْعُورِ، وَخَلْفَهُمْ تَمَوَّجَ الدُّخَانُ وَتَجَمَّعَ فَوْقَ قِمَمِ الْأَشْجَارِ بَيْنَمَا اسْتَمَرَّ انْطِلَاقُ الْمَدَافِعِ.

انْتَابَتْ هنري حَالَةٌ مِنَ الذُّعْرِ، وَحَدَّقَ فِي الْمَشْهَدِ أَمَامَهُ فِي ذُهُولٍ؛ لَقَدْ خَسِرَ الْجَيْشُ الْمَعْرَكَةَ. سُرْعَانَ مَا وَجَدَ هنري نَفْسَهُ وَسْطَ الْفَارِّينَ. حَاوَلَ أَنْ يَطْرَحَ بَعْضَ الْأَسْئِلَةِ عَلَى الْقَرِيبِينَ مِنْهُ، لَكِنْ يَبْدُو أَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوهُ. كَانَ الرِّجَالُ يَفِرُّونَ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ، وَأَخِيرًا، أَمْسَكَ هنري بِذِرَاعِ أَحَدِ الرِّجَالِ، وَتَمَايَلَ كِلَاهُمَا وَجْهًا لِوَجْهٍ.

قَالَ هنري مُتَلَعْثِمًا: «لِمَاذَا ...؟ لِمَاذَا ...؟»

صَرَخَ الرَّجُلُ: «دَعْنِي! دَعْنِي!» كَانَ الرَّجُلُ يَلْهَثُ وَيَسْحَبُ نَفسَهُ فِي هِيَاجٍ: «دَعْنِي!»

تَمْتَمَ هنري: «لِمَاذَا ...؟ لِمَاذَا ...؟»

صَاحَ الرَّجُلُ: «حَسَنًا، إِذَنْ!» وَضَرَبَ هنري فِي رَأْسِهِ وَلَاذَ بِالْفِرَارِ.

سَقَطَ هنري أَرْضًا، وَوَجَدَ صُعُوبَةً فِي الْوُقُوفِ ثَانِيَةً. وَعِنْدَمَا وَقَفَ أَخِيرًا، شَعَرَ بِالْوَهَنِ الشَّدِيدِ، وَكَانَتْ هُنَاكَ ضَوْضَاءُ صَاخِبَةٌ فِي رَأْسِهِ. فِي النِّهَايَةِ نَجَحَ فِي الِانْتِقَالِ إِلَى الْحَشَائِشِ، وَشَعَرَ بِجُرْحٍ فِي أَعْلَى رَأْسِهِ.

رَأَى هنري بَعْضَ الْجُنُودِ وَالضُّبَّاطِ يُحَاوِلُونَ تَجْمِيعَ أَنْفُسِهِمْ لِلْعَوْدَةِ إِلَى الصُّفُوفِ. كَسَا ضَبَابُ الْمَسَاءِ الْأَزْرَقُ الْحَقْلَ، وَاكْتَسَتِ الْغَابَةُ بِظِلَالٍ قُرْمُزِيَّةٍ مُمْتَدَّةٍ، وَكَانَتْ هُنَاكَ سَحَابَةٌ وَحِيدَةٌ فِي السَّمَاءِ. تَرَكَ هنري الْمَشْهَدَ وَرَاءَهُ، وَمَا إِنْ فَعَلَ حَتَّى سَمِعَ طَلَقَاتِ الْبَنَادِقِ تُدَوِّي مُجَدَّدًا فَجْأَةً.

الفصل الخامس عشر

غَرِيبٌ يُقَدِّمُ الْعَوْنَ

تَسَارَعَتْ خُطُوَاتُ هنري عِنْدَ حُلُولِ الْغَسَقِ. بَعْدَ فَتْرَةٍ، لَمْ يَعُدْ جُرْحُهُ يُؤْلِمُهُ. فَكَّرَ هنري فِي مَوْطِنِهِ أَثْنَاءَ سَيْرِهِ، وَأَخِيرًا بَلَغَ الْإِنْهَاكُ مِنْهُ كُلَّ مَبْلَغٍ، فتَدَلَّى رَأْسُهُ إِلَى الْأَمَامِ، وانْحَنَتْ كَتِفَاهُ كَأَنَّهُ يَحْمِلُ حِمْلًا ثَقِيلًا، وَأَصْبَحَ يَجُرُّ قَدَمَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ.

فِي النِّهَايَةِ سَمِعَ صَوْتًا مُبْتَهِجًا بِجِوَارِ كَتِفِهِ يَقُولُ: «تَبْدُو بِحَالَةٍ سَيِّئَةٍ لِلْغَايَةِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

لَمْ يَرْفَعْ هنري بَصَرَهُ، لَكِنَّهُ قَالَ: «بَلَى.»

أَمْسَكَ صَاحِبُ الصَّوْتِ الْمُبْتَهِجِ بِذِرَاعِ هنري بِإِحْكَامٍ.

قَالَ الرَّجُلُ ضَاحِكًا: «حَسَنًا، أَنَا ذَاهِبٌ فِي طَرِيقِكَ. الْمَجْمُوعَةُ كُلُّهَا ذَاهِبَةٌ فِي طَرِيقِكَ، وَأَظُنُّ أَنَّ بِاسْتِطَاعَتِنَا تَوْصِيلَكَ.»

أَثْنَاءَ سَيْرِهِمَا، سَأَلَ الرَّجُلُ هنري عَمَّا رَآهُ، وَأَخْبَرَهُ بِمَا يَعْرِفُهُ عَنْ كَتِيبَةِ هنري.

قَالَ الرَّجُلُ: «إِنَّهُمْ هُنَاكَ فِي قَلْبِ الْمَعْرَكَةِ، أَعْتَقِدُ أَنَّ الْجَمِيعَ قَدْ أَخَذُوا نَصِيبَهُمْ مِنَ الْقِتَالِ الْيَوْمَ. كِدْتُ أَسْتَسْلِمُ بِضْعَ مَرَّاتٍ. كَانَ هُنَاكَ صُرَاخٌ وَإِطْلَاقُ نَارٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ. حَلَّ الظَّلَامُ، وَلَمْ أَعُدْ أَعْرِفُ أَيْنَ أَنَا، أَوْ فِي أَيِّ جَانِبٍ أَكُونُ. كَيْفَ وَجَدْتَ طَرِيقَكَ إِلَى هُنَا عَلَى أَيِّ حَالٍ؟ فَكَتِيبَتُكَ بَعِيدَةٌ جِدًّا مِنْ هُنَا. أَظُنُّ أَنَّ بِإِمْكَانِي الْعُثُورَ عَلَيْهِمْ.»

أَثْنَاءَ الْبَحْثِ عَنْ كَتِيبَةِ هنري، بَدَا صَاحِبُ الصَّوْتِ الْمُبْتَهِجِ وَكَأَنَّ لَدَيْهِ مَهَارَةً سِحْرِيَّةً. كَانَ قَادِرًا عَلَى شَقِّ طَرِيقِهِ بِسُهُولَةٍ عَبْرَ الْغَابَاتِ الْمُتَشَابِكَةِ. وَكُلَّمَا مَرُّوا بِأُنَاسٍ آخَرِينَ، أَبْدَى الرَّجُلُ ذَكَاءَ الْمُحَقِّقِينَ وَشَجَاعَةَ الْأَبْطَالِ. كَانَتِ الْمُشْكِلَاتُ تَخْتَفِي أَمَامَهُ، وَتَتَحَوَّلُ لِأَشْيَاءَ قَدْ تُسَاعِدُهُمَا فِي طَرِيقِهِمَا. كَانَ هنري يَنْتَحِي جَانِبًا عِنْدَمَا كَانَ رَفِيقُهُ يُحَاوِلُ أَنْ يَشُقَّ طَرِيقَ الْعَوْدَةِ لِكِلَيْهِمَا.

بَدَتِ الْغَابَةُ وَكَأَنَّهَا مُكْتَظَّةٌ بِرِجَالٍ يَرْكُضُونَ فِي دَوَائِرَ وَقَدْ ضَلُّوا طَرِيقَهُمْ، لَكِنَّ رَفِيقَ هنري تَجَاوَزَ بِهِ كُلَّ الْعَثَرَاتِ حَتَّى بَدَأَ يَضْحَكُ فِي سَعَادَةٍ وَرِضًى أَخِيرًا.

قال الرَّجُلُ: «هَا قَدْ وَصَلْتَ، أَتَرَى تِلْكَ النَّارَ؟»

أَوْمَأَ هنري بِرَأْسِهِ، وَتَمَلَّكَهُ شُعُورٌ بِالْحَمَاقَةِ.

قَالَ الرَّجُلُ: «هَذِهِ كَتِيبَتُكَ. إِلَى اللِّقَاءِ الْآنَ يَا فَتى. أَتَمَنَّى لَكَ حَظًّا سَعِيدًا.»

أَمْسَكَتْ يَدُ الرَّجُلِ الدَافِئَةُ القَوِيَّةُ بِأَصَابِعِ هنري الرَّقِيقَةِ هُنَيْهَةً، ثُمَّ سَمِعَ هنري صَفِيرًا مُبْهِجًا أَثْنَاءَ ابْتِعَادِ الرَّجُلِ. كَانَ الرَّجُلُ وَدُودًا مَعَهُ، وَبَيْنَمَا رَاقَبَ هنري ابْتِعَادَهُ، أَدْرَكَ فَجْأَةً أَنَّهُ لَمْ يَرَ وَجْهَه قَطُّ.

الفصل السادس عشر

الْعَوْدَةُ إِلَى الْمُعَسْكَرِ

اتَّجَهَ هنري بِبُطْءٍ نَحْوَ النَّارِ يُفَكِّرُ خَائِفًا فِي كَيْفِيَّةِ اسْتِقْبَالِ أَصْدِقَائِهِ لَهُ. كَانَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُمْ سَيَسْخَرُونَ مِنْهُ. فَكَّرَ فِي الِاخْتِبَاءِ فِي الظَّلَامِ، لَكِنَّهُ كَانَ مُنْهَكًا لِلْغَايَةِ وَقَدْ بَلَغَ مِنْهُ الْأَلَمُ مَبْلَغَهُ.

اسْتَطَاعَ أَنْ يَرَى رِجَالًا يَنَامُونَ فَوْقَ الْأَرْضِ بِجِوَارِ النَّارِ، وَفَجْأَةً اقْتَرَبَ مِنْهُ شَخْصٌ طَوِيلُ الْقَامَةِ يَحْمِلُ بُنْدُقِيَّةً.

صَاحَ الرَّجُلُ: «تَوَقَّفْ! تَوَقَّفْ!»

ارْتَبَكَ هنري لَحْظَةً، ثُمَّ اعْتَقَدَ أَنَّهُ تَعَرَّفَ عَلَى صَاحِبِ الصَّوْتِ.

قَالَ: «مَرْحَبًا، ويلسون! هَلْ ... هَلْ هَذَا أَنْتَ؟»

انْخَفَضَتِ الْبُنْدُقِيَّةُ، وَتَقَدَّمَ ويلسون بِبُطْءٍ، وَنَظَرَ فِي وَجْهِ هنري.

سَأَلَهُ ويلسون: «أَهَذَا أَنْتَ يَا هنري؟ سَعِيدٌ بِرُؤْيَتِكَ يا فَتى، كُنْتُ قَدْ فَقَدْتُ الْأَمَلَ فِي عَوْدَتِكَ.»

لَمْ يَكُنْ هنري يَقْوَى عَلَى الْوُقُوفِ، وَحَاوَلَ سَرْدَ قِصَّتِهِ سَرِيعًا.

قَالَ: «نَعَمْ، نَعَمْ، لَقَدْ مَرَرْتُ بِوَقْتٍ عَصِيبٍ. مَرَرْتُ بِكُلِّ الْأَمَاكِنِ. انْفَصَلْتُ عَنِ الْكَتِيبَةِ، وَأُصِبْتُ هُنَا فِي رَأْسِي؛ لَقَدْ خَدَشَتْنِي الطَّلْقَةُ. لَمْ أَشْهَدْ قِتَالًا كَهَذَا قَطُّ، كَانَ وَضْعًا عَصِيبًا. لَا أَعْلَمُ كَيْفَ انْفَصَلْتُ عَنِ الْكَتِيبَةِ.»

تَحَرَّكَ ويلسون مُسْرِعًا إِلَى الْأَمَامِ، وَقَالَ: «مَاذَا، أُصِبْتَ؟ لِمَاذَا لَمْ تَقُلْ هَذَا عَلَى الْفَوْرِ أَيُّهَا الْفَتَى الْمِسْكِينُ؟»

بَعْدَهَا خَرَجَ عَرِيفٌ مِنْ وَسْطِ الظَّلَامِ، وَقَالَ: «هنري! أَأَنْتَ هُنَا؟ ظَنَنْتُ أَنَّكَ قَدْ رَحَلْتَ مُنْذُ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ. يَا إِلَهِي! إِنَّهُمْ يُعَاوِدُونَ الظُّهُورَ كُلَّ بِضْعِ دَقَائِقَ. ظَنَنَّا أَنَّنَا فَقَدْنَا اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ رَجُلًا، لَكِنْ هَا هُمْ رِجَالُنَا يَعُودُونَ. بِهَذَا الْمُعَدَّلِ سَيَعُودُ الْجَمِيعُ بِحُلُولِ الصَّبَاحِ. أَيْنَ كُنْتَ؟»

بَدَأَ هنري فِي الْكَلَامِ: «لَقَدِ انْفَصَلْتُ ...»

قَاطَعَهُ ويلسون: «نَعَمْ، وَقَدْ أُصِيبَ فِي رَأْسِهِ، يَجِبُ أَنْ نَعْتَنِيَ بِهِ فِي الْحَالِ.»

أَخَذَ ويلسون وَالْعَرِيفُ هنري إِلَى أَحَدِ الْأَغْطِيَةِ بِالْقُرْبِ مِنَ النَّارِ، وَبَدَأَ الْجُنُودُ الْآخَرُونَ يَمُدُّونَ يَدَ الْمُسَاعَدَةِ مَا إِنْ رَأَوْهُ. رَبَطَ الْعَرِيفُ الْجُرْحَ فِي رَأْسِ هنري.

بَيْنَمَا كَانَ هنري يَسْتَرِيحُ، نَظَرَ إِلَى الرِّجَالِ الْآخَرِينَ حَوْلَ النَّارِ. كَانَ بَعْضُهُمْ نَائِمِينَ يَحْمِلُونَ بَنَادِقَهُمْ وَسُيُوفَهُمْ، وكَانَتْ أَجْسَادُهُمْ مُغَطَّاةً بِالطِّينِ وَالْأَوْسَاخِ، وثِيَابُهُمْ مُمَزَّقَةً. بَدَا الْجَمِيعُ مُتْعَبِينَ لِلْغَايَةِ.

جَلَسَ هنري حَزِينًا حَتَّى عَادَ ويلسون يَحْمِلُ قِرْبَتَيْنِ.

قَالَ ويلسون: «حَسَنًا يَا هنري، سَتَكُونُ بِخَيْرٍ بَعْدَ قَلِيلٍ.»

ذَكَّى ويلسون النَّارَ وَحَرَّكَ الْعِصِيَّ فِيهَا، ثُمَّ سَقَى هنري مِنَ القِرْبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَحْتَوِي عَلَى قَهْوَةٍ بَارِدَةٍ. شَرِبَ هنري كَثِيرًا، وَلَطَّفَتِ الْقَهْوَةُ حَلْقَهُ. وبَعْدَمَا انْتَهَى، تَنَهَّدَ تَنْهِيدَةَ سَعَادَةٍ وَرَاحَةٍ. بَعْدَهَا رَبَطَ ويلسون رَأْسَ هنري بِمِنْدِيلٍ كَبِيرٍ.

قَالَ ويلسون وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى مَا فَعَلَ: «هَا أَنْتَ ذَا تَبْدُو مِثْلَ الشَّيْطَانِ، لَكِنْ أُرَاهِنُ أَنَّكَ الْآنَ أَفْضَلُ. أَنْتَ قَوِيٌّ يَا هنري؛ حِينَمَا كُنَّا نُنَظِّفُ جُرْحَكَ لَمْ تَصْرُخْ أَوْ تَتَفَوَّهْ بِشَيْءٍ، مَعَ أَنَّ إِصَابَاتِ الرَّأْسِ تَكُونُ خَطِيرَةً. اسْتَلْقِ الْآنَ وَاحْصُلْ عَلَى بَعْضِ الرَّاحَةِ.»

اسْتَلْقَى هنري فِي حَذَرٍ، وَتَمَدَّدَ وَهُوَ يُطْلِقُ هَمْهَمَاتِ ارْتِيَاحٍ. بَدَتِ الْأَرْضُ كَأَنَّهَا أَرِيكَةٌ مُرِيحَةٌ.

لَكِنَّهُ قَامَ فَجْأَةً وَقَالَ: «انْتَظِرْ لَحْظَةً، أَيْنَ سَتَنَامُ؟»

لَوَّحَ إِلَيْهِ صَدِيقَهُ.

قَالَ: «هُنَاكَ بِالْقُرْبِ مِنْكَ.»

– «عَلَى أَيِّ شَيْءٍ سَتَنَامُ؟ فَغِطَاؤُكَ مَعِي.»

دَمْدَمَ ويلسون: «اهْدَأْ وَاخْلُدْ إِلَى النَّوْمِ. لَا تَكُنْ أَحْمَقَ.»

عِنْدَئِذٍ صَمَتَ هنري. تَسَلَّلَ شُعُورٌ بِالنُّعَاسِ فِي جَسَدِهِ كُلِّهِ. وَتَحْتَ الْغِطَاءِ الْمُرِيحِ الدَّافِئِ وَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى ذِرَاعِهِ وَأُغْمِضَتْ عَيْنَاهُ سَرِيعًا. وعِنْدَمَا سَمِعَ أَصْوَاتَ إِطْلَاقِ النَّارِ مِنْ بَعِيدٍ، تَسَاءَلَ: هَلْ يَنَامُ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ؟ أَطْلَقَ تَنْهِيدَةً طَوِيلَةً، وَانْكَمَشَ دَاخِلَ الْغِطَاءِ، وَسُرْعَانَ مَا رَاحَ فِي النَّوْمِ مِثْلَ أَصْدِقَائِهِ.

الفصل السابع عشر

شِجَارٌ دَاخِلَ الْمُعَسْكَرِ

عِنْدَمَا اسْتَيْقَظَ هنري مِنْ نَوْمِهِ، شَعَرَ وَكَأَنَّهُ ظَلَّ نَائِمًا أَلْفَ سَنَةٍ. ارْتَجَفَ وَجْهُهُ عِنْدَمَا سَقَطَتْ عَلَيْهِ قَطْرَةُ نَدًى بَارِدَةٌ، وَحَدَّقَ بُرْهَةً فِي أَوْرَاقِ الشَّجَرِ الْمُتَطَايِرَةِ فَوْقَهُ. وَمِنْ بَعِيدٍ اسْتَطَاعَ سَمَاعَ أَصْوَاتِ الْقِتَالِ.

كَانَ مُحَاطًا بِمَجْمُوعَاتٍ مِنَ الرِّجَالِ النَّائِمِينَ فِي أَوْضَاعٍ غَرِيبَةٍ بِلَا حِرَاكٍ، يَعْلُو الشُّحُوبُ وُجُوهَهُمْ. لِلَحْظَةٍ ظَنَّ هنري أَنَّهُمْ جَمِيعًا مَوْتَى. بَعْدَهَا رَأَى ويلسون يَتَدَفَّأُ بِنَارٍ صَغِيرَةٍ، وَرَأَى بِضْعَةَ رِجَالٍ يَتَحَرَّكُونَ وَسْطَ الضَّبَابِ، وَسَمِعَ صَوْتَ شَخْصٍ يَقْطَعُ الْأَخْشَابَ.

دَقَّتْ طُبُولُ الْحَرْبِ فَجْأَةً، وَسَمِعَ مِنْ بَعِيدٍ صَوْتُ بُوقٍ خَافِتٌ. بَدَأَ الْجُنُودُ حَوْلَ هنري فِي الاسْتِيقَاظِ، وَرَأَى ويلسون أَنَّ هنري كَانَ مُسْتَيْقِظًا، فَسَأَلَهُ: «كَيْفَ حَالُكَ هَذَا الصَّبَاحَ يَا هنري؟»

تَثَاءَبَ هنري، كَانَ يَشْعُرُ بِثِقْلٍ فِي رَأْسِهِ، وَمَعِدَتُهُ تُؤْلِمُهُ.

قَالَ: «أَنَا مُتْعَبٌ كَثِيرًا.»

ثَبَّتَ ويلسون الْعِصَابَةَ عَلَى رَأْسِ هنري، ثُمَّ أَعَدَّ بَعْضَ الطَّعَامِ لِكِلَيْهِمَا. تَذَكَّرَ هنري كَيْفَ كَانَ صَدِيقُهُ يَتَصَرَّفُ عَلَى نَحْوٍ مُخْتَلِفٍ لِلْغَايَةِ قَبْلَ مَعْرَكَتِهِمُ الْكُبْرَى. لَمْ يَعُدْ ويلسون ذَلِكَ الْجُنْدِيَّ الشَّابَّ عَالِيَ الصَّوْتِ، بل أَصْبَحَ الْآنَ هَادِئًا وَاثِقًا مِنْ نَفْسِهِ، وَلَمْ يَعُدْ يَغْضَبُ مِنَ التَّعْلِيقَاتِ التَّافِهَةِ الَّتِي يَسْمَعُهَا مِنَ الْآخَرِينَ. تَسَاءَلَ هنري مَتَى حَلَّ هَذَا التَّغْيِيرُ بِصَدِيقِهِ.

وَضَعَ ويلسون فِنْجَانَ الْقَهْوَةِ عَلَى رُكْبَتِهِ، وَقَالَ: «كَيْفَ تَنْظُرُ إِلَى فُرْصَتِنَا فِي الْفَوْزِ يَا هنري؟ هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّنَا سَنَهْزِمُهُمْ؟»

فَكَّرَ هنري قَلِيلًا، ثُمَّ قَالَ: «إِذَا عُدْنَا بِالزَّمَنِ إِلَى أَوَّلِ أَمْسِ، كُنْتَ سَتَقُولُ إِنَّكَ قَادِرٌ عَلَى هَزِيمَتِهِمْ بِمُفْرَدِكَ.»

بَدَا ويلسون مُنْدَهِشًا.

سَأَلَ ويلسون: «هَلْ كُنْتُ سَأَقُولُ هَذَا حَقًّا؟ حَسَنًا، رُبَّمَا تَكُونُ مُحِقًّا، أَعْتَقِدُ أَنَّنِي كُنْتُ سَاذَجًا كَبِيرًا فِي السَّابِقِ.»

حَاوَلَ هنري أَنْ يَعْتَذِرَ لِأَنَّهُ أَحْرَجَ صَدِيقَهُ، لَكِنَّ ويلسون لَمْ يَكُنْ يَحْتَاجُ اعْتِذَارًا. بَعْدَ فَتْرَةٍ قَالَ ويلسون إِنَّ الْعَدُوَّ الْآنَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُرِيدُونَهُ فِيهِ تَمَامًا.

قَالَ هنري: «لَا أعْرِفُ شَيْئًا عَنْ هَذَا. بَدَا لِي مِنْ مَكَانِي أمْسِ أنَّنَا تَلَقَّيْنَا مِنْهُمْ ضَرْبَةً قَاصِمَةً.»

سَأَلَ ويلسون: «أَتَظُنُّ ذَلِكَ؟ أَظُنُّ أَنَّنَا عَامَلْنَاهُمْ بِمُنْتَهَى الْقَسْوَةِ أَمْسِ.»

قَالَ هنري: «عَلَى الْإِطْلَاقِ، أَنْتَ لَمْ تَشْهَدْ شَيْئًا مِنَ الْمَعْرَكَةِ.»

فِي كُلِّ مَكَانٍ حَوْلَهُمَا كَانَ الرِّجَالُ يَلْتَفُّونَ حَوْلَ النِّيرَانِ الصَّغِيرَةِ الْأُخْرَى. وَفَجْأَةً تَصَاعَدَتْ أَصْوَاتٌ حَادَّةٌ. كَانَ هُنَاكَ جُنْدِيَّانِ يَضْحَكَانِ مِنْ رَجُلٍ ضَخْمِ الْجُثَّةِ مُلْتَحٍ حَتَّى ثَارَتْ ثَائِرَتُهُ، وَبَدَا أَنَّ شِجَارًا سَيَقَعُ.

وَقَفَ ويلسون وَفَرَّقَ بَيْنَ الرِّجَالِ الثَّلَاثَةِ.

قَالَ: «مَا جَدْوَى ذَلِكَ يا رِجَالُ؟ سَنُوَاجِهُ الْعَدُوَّ بَعْدَ أَقَلَّ مِنْ سَاعَةٍ، فَلِمَاذَا يُقَاتِلُ بَعْضُنَا بَعْضًا؟»

ذَكَّرَ أَحَدُ الْجُنُودِ ويلسون بِالشِّجَارِ الَّذِي دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جُنْدِيٍّ آخَرَ مُنْذُ بِضْعَةِ أَيَّامٍ وَأَنَّهُ خَسِرَ.

قَالَ الْجُنْدِيُّ: «أَنْتَ لَا تُحِبُّ الشِّجَارَ مُنْذُ أَنْ خَسِرْتَ تِلْكَ الْمَرَّةَ، ثُمَّ إِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِكَ.»

أَخِيرًا، هَدَأَ الرِّجَالُ، وَعَادَ ويلسون إِلَى مَكَانِهِ، وَسُرْعَانَ مَا عَادَ الْجُنُودُ يُمَازِحُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَأَنَّهُمْ أَصْدِقَاءُ قُدَامَى.

قَالَ ويلسون: «أَكْرَهُ رُؤْيَةَ الْجُنُودِ يَتَشَاجَرُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ.»

ضَحِكَ هنري، وَقَالَ: «لَقَدْ تَغَيَّرْتَ كَثِيرًا يَا ويلسون. إِنَّنِي أَتَذَكَّرُكَ عِنْدَمَا كُنْتَ مُسْتَعِدًّا لِلشِّجَارِ حَتَّى مِنْ دُونِ تَفْكِيرٍ.»

قَالَ ويلسون: «أَظُنُّ أَنِّي كُنْتُ كَذَلِكَ.»

بَعْدَ دَقِيقَةٍ قَالَ هنري: «أَعْتَذِرُ لَوْ سَبَّبْتُ لَكَ حَرَجًا.»

قَالَ ويلسون: «لَا تَشْغَلْ بَالَكَ يَا هنري.» ثُمَّ فَكَّرَ قَلِيلًا وَقَالَ: «ظَنَنَّا أَنَّ الْكَتِيبَةَ فَقَدَتْ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ رِجَالِهَا أَمْسِ. ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ جَمِيعًا قُتِلُوا، لَكِنَّهُمْ ظَلُّوا يَعُودُونَ اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ حَتَّى بَدَا أَنَّنَا لَمْ نَفْقِدْ سِوَى قَلِيلِينَ. كَانُوا مُنْتَشِرِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ يُقَاتِلُونَ مَعَ الْكَتَائِبِ الْأُخْرَى تَمَامًا مِثْلَمَا فَعَلْتَ أَنْتَ.»

سَأَلَ هنري: «حَقًّا؟!»

الفصل الثامن عشر

الْخِطَابُ

كَانَ الْجُنُودُ يَقِفُونَ فِي وَضْعِ انْتِبَاهٍ عَلَى جَانِبِ أَحَدِ الطُّرُقِ يَنْتَظِرُونَ الْأَمْرَ بِالتَّقَدُّمِ، وَفَجْأَةً تَذَكَّرَ هنري الطَّرْدَ الصَّغِيرَ الْمَلْفُوفَ دَاخِلَ مَظْرُوفٍ أَصْفَرَ بَاهِتٍ الَّذِي أَعْطَاهُ لَهُ ويلسون مِنْ قَبْلُ.

نَادَى هنري عَلَى صَدِيقِهِ: «ويلسون!»

– «مَاذَا؟»

كَانَ ويلسون يُحَدِّقُ فِي الطَّرِيقِ، وَلِسَبَبٍ غَرِيبٍ ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ نَظْرَةٌ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ جَعَلَتْهُ يَبْدُو خَائِفًا لِلْغَايَةِ. شَعَرَ هنري أَنَّ عَلَيْهِ تَغْيِيرَ الْمَوْضُوعِ.

قَالَ هنري: «لَا شَيْءَ.»

قَرَّرَ هنري أَلَّا يُذَكِّرَهُ بِهَذَا الْيَوْمِ الَّذِي أَعْطَاهُ فِيهِ ويلسون الْمَظْرُوفَ عِنْدَمَا كَانَ خَائِفًا وَعَلَى يَقِينٍ أَنَّهُ سَيَلْقَى حَتْفَهُ. تَذْكِيرُهُ بِلَحْظَةِ الْخَوْفِ هَذِهِ سَيَكُونُ فِعْلًا وَضِيعًا.

اعْتَادَ هنري الْخَوْفَ مِنْ ويلسون لِأَنَّهُ سَرِيعُ الْغَضَبِ، أَمَّا الْآنَ فَقَدْ خَطَرَتْ عَلَى بَالِ هنري خُطَّةٌ جَدِيدَةٌ؛ إِذَا سَأَلَهُ ويلسون عَمَّا حَدَثَ فِعْلًا أَمْسِ — إِذَا اكْتَشَفَ أَنَّ هنري قَدْ فَرَّ مِنَ الْمَعْرَكَةِ — فَسَوْفَ يُخْرِجُ هنري الْمَظْرُوفَ الصَّغِيرَ وَيُذَكِّرُهُ كَمْ كَانَ مَذْعُورًا. هَذَا الْخِطَابُ سِلَاحٌ فِي يَدِ هنري يُمْكِنُهُ اسْتِخْدَامُهُ لِيَحْمِيَ نَفْسَهُ مِنْ سُخْرِيَةِ الْآخَرِينَ.

فِي لَحْظَةِ ضَعْفٍ نَادِرَةٍ، تَحَدَّثَ ويلسون عَنِ الْمَوْتِ وَهُوَ يَرْتَجِفُ، وَأَعْطَاهُ الْمَظْرُوفَ الَّذِي يَحْتَوِي بِالتَّأْكِيدِ عَلَى تَذْكَارٍ لِأَقَارِبِهِ. شَعَرَ هنري الْآنَ أَنَّهُ أَفْضَلُ حَالًا مِنْ صَدِيقِهِ، بَلْ إِنَّهُ شَعَرَ بِالْأَسَى عَلَيْهِ.

اسْتَعَادَ هنري اعْتِزَازَهُ بِنَفْسِهِ. صَحِيحٌ أَنَّهُ ارْتَكَبَ أَخْطَاءً، لَكِنْ لَنْ يَعْلَمَ عَنْهَا أَحَدٌ شَيْئًا. إِنَّهُ لَا يَزَالُ رَجُلًا فِي أَعْيُنِ الْآخَرِينَ. لَمْ يُفَكِّرْ هنري فِي الْمَعَارِكِ الْوَشِيكَةِ، وَلَمْ يَكُنْ بِحَاجَةٍ لِلتَّفْكِيرِ فِي كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَهَا. لَقَدْ تَعَلَّمَ أَمْسِ أَنَّهُ لَنْ يُحَاسَبَ لَوْ تَخَلَّى عَنْ أَدَاءِ وَاجِبِهِ.

إِلَى جَانِبِ ذَلِكَ، كَانَ هنري يَشْعُرُ بِالثِّقَةِ؛ إِنَّهُ الْآنَ أَكْثَرُ إِيمَانًا بِنَفْسِهِ وَأَكْثَرُ خِبْرَةً مِنْ ذِي قَبْلُ. لَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْمَخَاطِرِ وَرَأَى أَسْوَأَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُرَى، وَالْآنَ يَظُنُّ أَنَّ مَا حَدَثَ لَمْ يَكُنْ بِهَذَا السُّوءِ.

فَكَّرَ هنري كَيْفَ يَقْتُلُونَهُ فِي حِينِ أَنَّهُ كَانَ وَاضِحًا أَنَّهُمُ اخْتَارُوهُ لِعِظَمِ شَأْنِهِ؟ وَإِلَّا، فَكَيْفَ اسْتَطَاعَ النَّجَاةَ مِنْ كُلِّ مَا تَعَرَّضَ لَهُ؟

تَذَكَّرَ هنري كَيْفَ لَاذَ آخَرُونَ بِالْفِرَارِ مِنَ الْمَعْرَكَةِ. وَعِنْدَمَا فَكَّرَ فِي وُجُوهِهِمُ الَّتِي كَانَ يَمْلَؤُهَا الذُّعْرُ، شَعَرَ أَنَّهُ لَيْسَ مِثْلَهُمْ، لَقَدْ كَانُوا ضُعَفَاءَ وَفَرُّوا بِسُرْعَةٍ بَالِغَةٍ أَمَامَ أَعْيُنِ الْجَمِيعِ، بَيْنَمَا فَرَّ هُوَ بِكِبْرِيَاءَ دُونَ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ.

سَعَلَ ويلسون بِصَوْتٍ عَالٍ، فَأَفَاقَ هنري مِنْ أَحْلَامِ يَقَظَتِهِ.

قَالَ ويلسون: «هنري!»

رَدَّ هنري: «مَاذَا هُنَاكَ؟»

سَعَلَ ويلسون مَرَّةً أُخْرَى، وَظَلَّ يَتَحَرَّكُ هُنَا وَهُنَاكَ كَأَنَّ شَيْئًا مَا يُؤَرِّقُهُ.

وَأَخِيرًا، قَالَ وَوَجْهُهُ مَكْسُوٌّ بِحُمْرَةِ الْخَجَلِ: «يُمْكِنُكَ أَنْ تُعِيدَ لِيَ الْخِطَابَ.»

قَالَ هنري بَعْدَ لَحَظَاتٍ: «حَسَنًا يَا ويلسون.»

فَتَحَ هنري سُتْرَتَهُ، وَأَخْرَجَ الْخِطَابَ مِنْ جَيْبِهِ الدَّاخِلِيِّ، وَأَعْطَاهُ لويلسون الَّذِي كَانَ خَجِلًا، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ النَّظَرَ إِلَى هنري.

كَانَ هنري يَتَوَانَى فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُفَكِّرُ فِي شَيْءٍ يَقُولُهُ بِشَأْنِ الْخِطَابِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ مَا يَقُولُ، وَلِهَذَا قَرَّرَ أَنْ يَكُونَ دَمِثًا مَعَ صَدِيقِهِ وَأَلَّا يَسْخَرَ مِنْهُ.

بَعْدَ ذَلِكَ فَكَّرَ هنري مَرَّةً أُخْرَى فِي الْمَعَارِكِ الَّتِي شَهِدَهَا حَتَّى الْآنَ. كَانَ مُوقِنًا أَنَّ بِإِمْكَانِهِ الْآنَ الْعَوْدَةَ إِلَى دِيَارِهِ وَإِشْعَالَ حَمَاسِ الْآخَرِينَ بِحِكَايَاتِهِ عَنِ الْحَرْبِ. تَخَيَّلَ هنري نَفْسَهُ فِي غُرْفَةٍ يَرْوِي الْقِصَصَ عَلَى الْمُسْتَمِعِينَ، وَرَأَى جُمْهُورَهُ وَهُمْ يَتَخَيَّلُونَهُ بَطَلًا فِي كُلِّ اللَّحَظَاتِ الْمُلْتَهِبَةِ.

الفصل التاسع عشر

التَّحَرُّكُ

صَارَتِ الْمَعَارِكُ غَرِيبَةُ الطَّابَعِ مَلْمَحًا لِهَذِهِ الْبُقْعَةِ مِنَ الْعَالَمِ؛ فَدَائِمًا تُسْمَعُ أَصْوَاتُ الْقَصْفِ وَهَدِيرُ الْمَدَافِعِ الْمَكْتُومُ فِي الْأُفُقِ.

صَدَرَ الْأَمْرُ لِكَتِيبَةِ هنري أَنْ تَحُلَّ مَحَلَّ كَتِيبَةٍ أُخْرَى ظَلَّتْ قَابِعَةً فَتْرَةً طَوِيلَةً دَاخِلَ بَعْضِ الْخَنَادِقِ الرَّطْبَةِ. أَحَاطَتْ أَصْوَاتُ الْقِتَالِ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وانْبَعَثَ الضَّجِيجُ مِنَ الْغَابَةِ أَمَامَهُمْ مُبَاشَرَةً وَعَلَى يَسَارِهِمْ، بَيْنَمَا زَادَتِ الْأَصْوَاتُ عَلَى يَمِينِهِمْ سُوءًا كُلَّ دَقِيقَةٍ، وَسُرْعَانَ مَا تَعَذَّرَ سَمَاعُ صَوْتِ أَحَدٍ.

أَرَادَ هنري أَنَّ يُمَازِحَ رِفَاقَهُ، لَكِنْ لَمْ يَسْمَعْهُ أَحَدٌ. أَخِيرًا تَوَقَّفَتْ أَصْوَاتُ الطَّلَقَاتِ وَبَدَأَتِ الشَّائِعَاتُ تَسْرِي بَيْنَ الرِّجَالِ مِنْ جَدِيدٍ. تَحَدَّثَ الْجُنُودُ عَنِ الْمَعَارِكِ الْأُخْرَى وَالْكَوَارِثِ الَّتِي نَجَوْا مِنْهَا.

وعِنْدَمَا انْطَلَقَتْ أَصْوَاتُ الْمَدَافِعِ مِنْ جَدِيدٍ، بَدَا الْبُؤسُ عَلَى وُجُوهِ الجُنُودِ وَبَدَءُوا يُغَمْغِمُونَ، وَكَأَنَّ لِسَانَ حَالِهِمْ يَقُولُ: «مَا الَّذِي يُمْكِنُنَا فِعْلُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ؟» سَمِعُوا شَائِعَاتٍ أَنَّ جَيْشَهُمْ كَانَ يَخْسَرُ الْحَرْبَ.

قَبْلَ أَنْ يَنْقَشِعَ الضَّبَابُ، تَقَدَّمَتِ الْكَتِيبَةُ بِحَذَرٍ دَاخِلَ الْغَابَاتِ. كَانَ رِجَالُ الْعَدُوِّ يُشَاهَدُونَ أَحْيَانًا وَهُمْ يُسْرِعُونَ وَسْطَ الْأَشْجَارِ وَالْحُقُولِ الصَّغِيرَةِ، وكَانُوا يَصِيحُونَ مُتَحَمِّسِينَ سُعَدَاءَ.

عِنْدَمَا رَأَى هنري ذَلِكَ، تَمَلَّكَهُ الْغَضَبُ، وَصَاحَ: «إِنَّنَا خَاضِعُونَ لِسَيْطَرَةِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْحَمْقَى!»

قَالَ أَحَدُ رِفَاقِهِ: «كَثِيرُونَ قَالُوا هَذَا الْكَلَامَ الْيَوْمَ.»

بَدَأَ هنري يَشْكُو بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ مِنْ قَائِدِ الْجَيْشِ، لَكِنَّ ويلسون أَوْقَفَهُ.

قَالَ بِصَوْتٍ مُرْهَقٍ: «لَا أَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُخْطِئٌ يَا هنري. لَقَدْ بَذَلَ مَا فِي وُسْعِهِ، وَمِنْ سُوءِ حَظِّنَا أَنْ نَخْسَرَ الْحَرْبَ.»

قَالَ هنري بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ: «أَلَمْ نُحَارِبْ كَالشَّيَاطِينِ؟ أَلَمْ نَفْعَلْ كُلَّ مَا بِاسْتِطَاعَةِ الرِّجَالِ فِعْلُهُ؟»

شَعَرَ هنري بِدَهْشَةٍ خَفِيَّةٍ مِمَّا قَالَهُ. شَعَرَ بِالذَّنْبِ لَحْظَةً، لَكِنْ لَمْ يُشَكِّكْ أَحَدٌ فِي حَقِّهِ لِأَنْ يَتَحَدَّثَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَسُرْعَانَ مَا عَادَتْ إِلَيْهِ شَجَاعَتُهُ.

قَالَ ويلسون: «لَنْ يَقُولَ أَحَدٌ إِنَّنَا لَمْ نُحَارِبْ بِضَرَاوَةٍ، لَكِنَّ الْحَظَّ لَمْ يَكُنْ حَلِيفَنَا.»

قَالَ هنري: «حسَنًا إِذَنْ، إِنْ كُنَّا قَدْ قَاتَلْنَا جَيِّدًا هَكَذَا، فَلَا بُدَّ أَنَّهُ خَطَأَ الجِنْرَالِ. لَا أرَى أيَّ مَنْطِقٍ فِي أَنْ نُحَارِبَ طِيلَةَ الْوَقْتِ وَنَخْسَرَ دَائِمًا بِسَبَبِ حَمَاقَتِهِ.»

قَالَ رَجُلٌ كَانَ يَسِيرُ بِجِوَارِهِ: «لَعَلَّكَ تَظُنُّ أَنَّكَ حَارَبْتَ جَيْشَ الْعَدُوِّ بِأَكْمَلِهِ أَمْسِ يَا هنري.»

عِنْدَهَا صَمَتَ هنري. كَانَ يَخْشَى أَنْ يَسْأَلَهُ الْآخَرُونَ عَنْ مَزِيدٍ مِنَ التَّفَاصِيلِ حَوْلَ مَا حَدَثَ لَهُ فِي الْيَوْمِ السَّابِقِ. لَمْ يُرِدْ لَفْتَ الِانْتِبَاهِ إِلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

فِي النِّهَايَةِ، تَوَقَّفَتِ الْكَتِيبَةُ فِي مَكَانٍ خَالٍ تُحِيطُ بِهِمْ أَصْوَاتُ الْمَعْرَكَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

تَذَمَّرَ هنري قَائِلًا: «دَائِمًا نُطَارَدُ كَالْفِئْرَانِ. لَا أَحَدَ يَعْلَمُ إِلَى أَيْنَ أَوْ لِمَاذَا نَتَحَرَّكُ. فَقَطْ يُحَرِّكُونَنَا هُنَا وَهُنَاكَ. الْآنَ لَدَى الْعَدُوِّ كُلُّ الْوَقْتِ لِلِاسْتِعْدَادِ لَنَا، وَنَحْنُ قَدْ وَصَلْنَا لِلتَّوِّ. لَا تُحَدِّثْنِي عَنْ سُوءِ الْحَظِّ، فَأَنَا أَعْلَمُ مِنْكَ. إِنَّهُ هَذَا الْعَجُوزُ اللَّعِينُ ...»

قَاطَعَهُ ويلسون وَقَالَ لَهُ بِصَوْتٍ هَادِئٍ وَاثِقٍ: «سَيَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ فِي النِّهَايَةِ.»

اكْتَمَلَ طُلُوعُ النَّهَارِ، وَأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ بِكَامِلِ أَشِعَّتِهَا عَلَى الْغَابَةِ. انْطَلَقَتْ إِحْدَى الطَّلَقَاتِ فِي الْغَابَةِ أَمَامَ الْكَتِيبَةِ، وَأَعْقَبَتْهَا عِدَّةُ طَلَقَاتٍ بَعْدَ أَقَلَّ مِنْ دَقِيقَةٍ. اجْتَاحَتِ الْغَابَاتِ جَلَبَةٌ مُدَوِّيَةٌ مِنَ الِاشْتِبَاكَاتِ وَالصِّرَاعَاتِ، وَأَصْبَحَ ضَجِيجُ الْمَعْرَكَةِ رَعْدًا مَلِيئًا بِانْفِجَارَاتٍ مُمْتَدَّةٍ.

انْتَظَرَ أَفْرَادُ الْكَتِيبَةِ. كَانُوا مُنْهَكِينَ ولَمْ يَأْخُذُوا قِسْطًا كَافِيًا مِنَ النَّوْمِ، فَضْلًا عَنْ أَنَّهُمْ عَمِلُوا كَثِيرًا. نَظَرُوا نَحْوَ الْمَعْرَكَةِ الْوَشِيكَةِ، وَانْتَظَرُوا الصَّدْمَةَ. ارْتَدَّ بَعْضُهُمْ إِلَى الْوَرَاءِ قَلِيلًا خَوْفًا مِنَ الْأَصْوَاتِ، بَيْنَمَا ثَبَتَ الْبَاقُونَ فِي أَمَاكِنِهِمْ.

الفصل العشرون

بَطَلٌ حَقِيقِيٌّ

عِنْدَمَا رَأَى هنري الْعَدُوَّ يَتَّجِهُ نَحْوَهُمْ، انْتَابَتْهُ نَوْبَةُ غَضَبٍ مُفَاجِئَةٌ. ضَرَبَ الْأَرْضَ بِقَدَمَيْهِ، وَحَدَّقَ فِي الدُّخَانِ الْمُتَصَاعِدِ وَالْمُقْتَرِبِ بِنَظْرَةٍ مِلْؤُهَا الْكَرَاهِيَةُ. شَعَرَ بِالْغَضَبِ لِأَنَّ الْعَدُوَّ لَنْ يَتْرُكَهُ يَسْتَرِيحُ، وَلَنْ يُعْطِيَهُ أَيَّ وَقْتٍ لِلْجُلُوسِ وَالتَّفْكِيرِ. حَارَبَ هنري أَمْسِ، وَفَرَّ سَرِيعًا. لَقَدْ خَاضَ عِدَّةَ مُغَامَرَاتٍ، وَشَعَرَ أَنَّ مِنْ حَقِّهِ الْحُصُولَ عَلَى قِسْطٍ مِنَ الرَّاحَةِ. كَانَ مُرْهَقًا لِلْغَايَةِ.

لَكِنْ يَبْدُو أَنَّ الرِّجَالَ الْآخَرِينَ لَا يَكِلُّونَ، وَكَانَ هنري يُكِنُّ لَهُمْ كَرَاهِيَةً بَالِغَةً. لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ أَنْ يُطَارَدَ بَعْدَ الْآنَ. انْحَنَى خَلْفَ شَجَرَةٍ صَغِيرَةٍ، وَصَرَّ عَلَى أَسْنَانِهِ. لَا تَزَالُ الْعِصَابَةُ مَرْبُوطَةً حَوْلَ رَأْسِهِ، وَبِهَا بُقْعَةٌ صَغِيرَةٌ مِنَ الدِّمَاءِ. كَانَ شَعْرُهُ أَشْعَثَ يَتَدَلَّى فَوْقَ الْعِصَابَةِ مُغَطِّيًا جَبِينَهُ. وكَانَتْ أَزْرَارُ سُتْرَتِهِ وَقَمِيصِهِ مَفْتُوحَةً عِنْدَ الْعُنُقِ، وَأَصَابِعُهُ مُلْتَفَّةً فِي تَوَتُّرٍ حَوْلَ بُنْدُقِيَّتِهِ. شَعَرَ أَنَّ الْعَدُوَّ يُهِينُهُ هُوَ وَأَصْدِقَاءَهُ. كَانُوا يُعَامِلُونَ وَكَأَنَّهُمْ ضِعَافٌ أَذِلَّاءُ، وَأَرَادَ أَنْ يَثْأَرَ لِذَلِكَ. أَرَادَ أَنْ يَهْزِمَهُمْ.

انْطَلَقَتْ أَمَامَهُمْ إِحْدَى الطَّلَقَاتِ النَّارِيَّةِ، وَعَلَى الْفَوْرِ تَبِعَتْهَا طَلَقَاتٌ أُخْرَى. وبَعْدَ قَلِيلٍ بَدَأَتْ كَتِيبَتُهُ تُطْلِقُ النِّيرَانَ. اسْتَقَرَّ حَاجِزٌ كَثِيفٌ مِنَ الدُّخَانِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ.كَانَ هنري يُحَارِبُ بِبَسَالَةٍ، بَلْ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعِي أَنَّهُ وَاقِفٌ. وَحِينَمَا فَقَدَ تَوَازُنَهُ وَسَقَطَ أَرْضًا، هَبَّ وَاقِفًا عَلَى الْفَوْرِ. ارْتَفَعَتْ حَرَارَةُ أُسْطُوَانَةِ بُنْدُقِيَّتِهِ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَتَحَمَّلَهَا فِي أَيِّ يَوْمٍ آخَرَ، لَكِنَّهُ اسْتَمَرَّ فِي إِطْلَاقِ النِّيرَانِ الْيَوْمَ.

ظَلَّ يُقَاتِلُ وَيُطْلِقُ النِّيرَانَ مِنْ بُنْدُقِيَّتِهِ حَتَّى بَعْدَ تَوَقُّفِ الْجَمِيعِ. كَانَ كُلُّ تَرْكِيزِهِ مُنْصَبًّا عَلَى الْقِتَالِ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَلْحَظِ الْهُدُوءَ الَّذِي سَادَ الْمَكَانَ. وَأَخِيرًا سَمِعَ ضَحِكَةً عَالِيَةً وَصَوْتًا بَدَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ.

صَاحَ أَحَدُ الْجُنُودِ: «أَيُّهَا الْأَحْمَقُ! أَلَمْ تَتَعَلَّمْ أَنْ تُوقِفَ الضَّرْبَ عِنْدَمَا لَا يَكُونُ هُنَاكَ مَا تُصَوِّبُ تِجَاهَهُ؟»

الْتَفَتَ هنري ونَظَرَ إِلَى رِفَاقِهِ. كَانُوا جَمِيعًا يُحَدِّقُونَ فِيهِ فِي دَهْشَةٍ. وعِنْدَمَا نَظَرَ إِلَى الْأَمَامِ مَرَّةً أُخْرَى، رَأَى أَرْضًا خَالِيَةً يَعْلُوهَا الدُّخَانُ. بَدَا عَلَيْهِ الِارْتِبَاكُ لَحْظَةً، ثُمَّ انْتَبَهَ إِلَى مَا كَانَ يَرَى.

قَالَ هنري: «أوه.»

عَادَ هنري إِلَى أَصْدِقَائِهِ وَأَلْقَى بِثِقْلِهِ عَلَى الْأَرْضِ. كَانَ الْمُلَازِمُ يَصِيحُ فِي حَمَاسٍ، وَقَالَ لهنري: «لَوْ كَانَ لَدَيَّ عَشَرَةُ آلَافِ قِطٍّ بَرِّيٍّ مِثْلِكَ، لَرَبِحْتُ هَذِهِ الْحَرْبَ فِي أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ.»

غَمْغَمَ بَعْضُ الْجُنُودِ، وَنَظَرُوا إِلَى هنري فِي دَهْشَةٍ. تَقَدَّمَ ويلسون نَحْوَهُ وَسَأَلَهُ: «هَلْ أَنْتَ بِخَيْرٍ يَا فليمنج؟ أَكُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ؟ أَلَمْ يُصِبْكَ مَكْرُوهٌ؟»

رَدَّ هنري فِي صُعُوبَةٍ: «كَلَّا.»

أَدْرَكَ هنري أَنَّهُ كَانَ يُحَارِبُ كَالْحَيَوَانِ، وَأَنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ صَعْبًا. لَقَدْ بَذَلَ جُهْدًا لِيَتَغَلَّبَ عَلَى خَوْفِهِ، وَالْآنَ أَصْبَحَ يَسْتَحِقُّ لَقَبَ الْبَطَلِ. إِنَّهُ حَتَّى لَمْ يُلَاحِظْ حُدُوثَ ذَلِكَ.

تَمَدَّدَ هنري عَلَى الْأَرْضِ، وَأَخَذَ يَسْتَمْتِعُ بِنَظَرَاتِ الْآخَرِينَ لَهُ مِنْ وَقْتٍ لِآخَرَ. كَانَتْ وُجُوهُهُمْ مُتَّسِخَةً مِنْ أَثَرِ الْبَارُودِ. كَانُوا يَتَصَبَّبُونَ عَرَقًا، وَيَتَنَفَّسُونَ بِصُعُوبَةٍ.

قَالَ الْمُلَازِمُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ: «أَحْسَنْتُمْ!» كَانَ سَعِيدًا لِلْغَايَةِ بِأَدَاءِ الْكَتِيبَةِ، وَأَخَذَ يَسِيرُ بَيْنَهُمْ ذَهَابًا وَإِيَابًا. كَانَ دَائِمَ الْحَرَكَةِ مُتَحَمِّسًا، بَلْ كَانَ يَضْحَكُ أَحْيَانًا.

قَالَ أَحَدُ الْجُنُودِ: «أُرَاهِنُ أَنَّ الْجَيْشَ لَنْ يَرَى كَتِيبَةً مِثْلَنَا أَبَدًا!»

قَالَ آخَرُ: «مِنْ دُونِ شَكٍّ!»

وقَالَ ثَالِثٌ: «كُلَّمَا ضَغَطُوا عَلَيْنَا، أَخْرَجُوا أَفْضَلَ مَا لَدَيْنَا.»

قَالَ آخَرُ: «لَقَدْ فَقَدُوا رِجَالًا كَثِيرِينَ.»

رَدَّ آخَرُ: «هَذَا صَحِيحٌ، وَلَوْ عَادُوا مَرَّةً أُخْرَى لَفَقَدُوا الْمَزِيدَ.»

كَانَ لَا يَزَالُ هُنَاكَ ضَجِيجٌ فِي الْغَابَةِ. وَمِنْ بَعِيدٍ بَيْنَ الْأَشْجَارِ جَاءَ صَوْتُ قَعْقَعَةِ إِطْلَاقِ النِّيرَانِ. تَصَاعَدَتْ غَيْمَةٌ دَاكِنَةٌ مِنَ الدُّخَانِ إِلَى السَّمَاءِ بِاتِّجَاهِ الشَّمْسِ الَّتِي كَانَتْ تُشْرِقُ وَسْطَ السَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ.

الفصل الحادي والعشرون

جِوَارٌ

كَانَ أَمَامَ الْجُنُودِ غَيْرِ الْمُنَظَّمِينَ دَقَائِقُ قَلِيلَةٌ لِيَسْتَرِيحُوا، لَكِنْ تَعَالَتْ أَصْوَاتُ الْقِتَالِ فِي الْغَابَةِ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ. بَدَا وَكَأَنَّ الْأَشْجَارَ تَرْتَجِفُ وَالْأَرْضُ تَهْتَزُّ مِنْ تَدَافُعِ الرِّجَالِ. أَنْصَتَتْ كَتِيبَةُ هنري إِلَى أَصْوَاتِ الصَّخَبِ.

كَانَ الْجَمِيعُ ظِمَاءً، وَقَالَ ويلسون إِنَّهُ سَمِعَ عَنْ جَدْوَلِ مَاءٍ قَرِيبٍ، وَتَطَوَّعَ لِلذَّهَابِ وَإِحْضَارِ الْمَاءِ. عَرَضَ هنري الْمُسَاعَدَةَ، وَعَلَى الْفَوْرِ أُلْقِيَتْ إِلَيْهِمْ قِرَبُ الْمِيَاهِ.

قَالَ رَجُلٌ: «امْلَأْ قِرْبَتِي؟»

وَقَالَ آخَرُ: «وَأَنَا أَيْضًا.»

وَقَالَ آخَرُونَ: «وَنَحْنُ أَيْضًا.»

غَادَرَ هنري وويلسون يَحْمِلَانِ الْعَدِيدَ مِنَ الْقِرَبِ، وظَلَّا يَبْحَثَانِ لبَعْضَ الْوَقْتِ، لَكِنْ عِنْدَمَا لَمْ يَجِدَا جَدْوَلَ المَاءِ، قَرَّرَا الْعَوْدَةَ.

وَمِنْ مَكَانِهِمَا، اسْتَطَاعَا رُؤْيَةَ صُورَةٍ أَوْضَحَ لِمَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي كَانَا فِيهِ مَعَ كَتِيبَتِهِمَا. اسْتَطَاعَا رُؤْيَةَ الْعَدِيدِ مِنْ سُحُبِ الدُّخَانِ الدَّاكِنَةِ حَيْثُ تُحَارِبُ الْكَتَائِبُ الْأُخْرَى، وَاسْتَطَاعَا أَيْضًا رُؤْيَةَ جُزْءٍ مِنْ مَنْزِلٍ فِيمَا وَرَاءَ الْأَشْجَارِ يَحْتَرِقُ وَيَتَصَاعَدُ مِنْهُ الدُّخَانُ إِلَى السَّمَاءِ، وَرَأَيَا كَتِيبَتَهُمَا. كَانَ التَّلُّ خَلْفَهُمَا مُكْتَظًّا بِالْكَتَائِبِ الْمُتَقَهْقِرَةِ.

نَظَرَ هنري وويلسون إِلَى الْغَابَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْهُمَا، فَوَجَدَا جِنْرَالًا وَمَعَهُ مُسَاعِدُوه يَمْتَطُونَ جِيَادَهُمْ. مَرُّوا عَلَى جُنْدِيٍّ جَرِيحٍ دُونَ أَنْ يَتَوَقَّفُوا. وَبَعْدَ لَحْظَةٍ تَوَجَّهَ ضَابِطٌ آخَرُ عَلَى جَوَادِهِ نَحْوَ الجِنْرَالِ. يَبْدُو أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَلْمَحْ هنري وَصَدِيقَهُ؛ وَلِذَا ظَلَّا قَرِيبَيْنِ يُحَاوِلَانِ الِاسْتِمَاعِ لِمَا يَقُولُهُ الجِنْرَالُ.

قَالَ الجِنْرَالُ: «تَسْتَعِدُّ قُوَّاتُ الْعَدُوِّ هُنَاكَ لِشَنِّ هُجُومٍ آخَرَ.» كَانَ يَتَحَدَّثُ فِي هُدُوءٍ وَكَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ عَنْ مَلَابِسِ الضَّابِطِ. «أَخْشَى أَنَّهُمْ سَيَخْتَرِقُونَ صُفُوفَنَا مَا لَمْ نَتَحَرَّكْ كَالرَّعْدِ لِإِيقَافِهِمْ.»

قَالَ الضَّابِطُ غَاضِبًا: «مِنَ الصَّعْبِ التَّصَدِّي لَهُمْ.»

قَالَ الجِنْرَالُ: «هَذَا مَا أَتَوَقَّعُهُ أَيْضًا.» ثُمَّ بَدَأَ يَتَحَدَّثُ سَرِيعًا وَبِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ مَع مُسَاعِدِيه. لَمْ يَسْمَعْ هنري وويلسون شَيْئًا آخَرَ إِلَى أَنْ سَأَلَ الجِنْرَالُ الضَّابِطَ: «أَيُّ الْكَتَائِبِ يُمْكِنُكَ الِاسْتِغْنَاءُ عَنْهَا؟»

فَكَّرَ الضَّابِطُ ثُمَّ قَالَ: «الْكَتِيبَةُ رَقْمُ ٣٠٤. إِنَّهُمْ عَدِيمُو الْجَدْوَى، يُحَارِبُونَ وَكَأَنَّهُمْ يَمْتَطُونَ بِغَالًا. يُمْكِنُنِي الِاسْتِغْنَاءُ عَنْهُمْ بِسُهُولَةٍ.»

نَظَرَ هنري وويلسون أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ فِي دَهْشَةٍ؛ فَالْكَتِيبَةُ رَقْمُ ٣٠٤ هِيَ كَتِيبَتُهُمَا. وتَحَدَّثَ الجِنْرَالُ بَعْدَهَا بِحِدَّةٍ: «جَهِّزْ تِلْكَ الْكَتِيبَةَ إِذَنْ. سَأُرَاقِبُ الْمَعْرَكَةَ مِنْ هُنَا، وَأُصْدِرُ الْأَمْرَ بِتَوْقِيتِ الْبَدْءِ. سَوْفَ يَنْتَهِي الْأَمْرُ فِي غُضُونِ خَمْسِ دَقَائِقَ. لَا أَعْتَقِدُ أَنَّ رَاكِبُو الْبِغَالِ سَيَنْجُونَ مِنْ ذَلِكَ.»

ابْتَسَمَ الضَّابِطُ والجِنْرَالُ وَهُمَا يَفْتَرِقَانِ. أَسْرَعَ هنري وويلسون بِالْعَوْدَةِ إِلَى كَتِيبَتِهِمَا وَالذُّعْرُ يَكْسُو وَجْهَيْهِمَا. وَمَعَ أَنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَسْتَغْرِقْ سِوَى بِضْعِ دَقَائِقَ، شَعَرَ هنري وَكَأَنَّهُ تَقَدَّمَ فِي الْعُمُرِ سَنَوَاتٍ عَدِيدَةً.

أدرك هنري أَنُّه لا يَعْنِي أَيَّ شَيْءٍ لِلْجَيْشِ. تَحَدَّثَ الضَّابِطُ عَنْ كَتِيبَتِهِ وَكَأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ عَنْ مِكْنَسَةٍ. وعِنْدَمَا عَادَا، أَخْبَرَا الْجَمِيعَ أَنَّهُمْ سَيُهَاجِمُونَ الْعَدُوَّ فِي غُضُونِ دَقَائِقَ.

قَالَ الْمُلَازِمُ وَقَدْ عَلَتْ وَجْهَهُ ابْتِسَامَةٌ: «هُجُومٌ؟ نَحْنُ نُقَاتِلُ الْآنَ إِذَنْ!»

رَأَى الرِّجَالُ شَخْصَيْنِ فَوْقَ صَهْوَتَيْ جَوَادَيْهِمَا عَلَى مَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ؛ الْأَوَّلُ قَائِدُ الْكَتِيبَةِ، وَالثَّانِي الضَّابِطُ الَّذِي تَلَقَّى الْأَوَامِرَ مِنَ الجِنْرَالِ. كَانَا يَتَحَدَّثانِ أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ، وَيُشِيرَانِ نَحْوَ الْكَتِيبَةِ.

بَدَأَ الضُّبَّاطُ فِي تَقْسِيمِ الرِّجَالِ إِلَى مَجْمُوعَاتٍ صَغِيرَةٍ. وَسُرْعَانَ مَا بَدَا كُلُّ فَرْدٍ فِي الْكَتِيبَةِ مَشْدُودَ الْقَامَةِ يَأْخُذُ نَفَسًا عَمِيقًا. كَانُوا يُرَاقِبُونَ الْغَابَةَ، وَأَحَاطَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ضَجِيجُ الْمَعْرَكَةِ الْكُبْرَى بَيْنَ الْجَيْشَيْنِ. بَدَا سَائِرُ الْعَالَمِ مُنْشَغِلًا بِأَشْيَاءَ أُخْرَى. وكَانَ هَذَا الْقِتَالُ مِنْ نَصِيبِ تِلْكَ الْكَتِيبَةِ وَحْدَهَا.

نَظَرَ هنري وويلسون أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ. لَمْ يُخْبِرَا أَحَدًا بِالْحَدِيثِ الَّذِي دَارَ بَيْنَ الجِنْرَالِ وَالضَّابِطِ حَوْلَ كَتِيبَتِهِمَا، وَكَيْفَ أَنَّ حَيَاتَهُمْ لَا تُسَاوِي شَيْئًا. لَقَدْ شُبِّهُوا بِرَاكِبِي الْبِغَالِ. لَا يُتَوَقَّعُ أَنَّهُمْ سَيَنْجُونَ مِنْ تِلْكَ الْمُوَاجَهَةِ. لَكِنَّهُ سِرٌّ بَيْنَ هنري وويلسون، وَرَغْمَ هَذَا فَكِلَاهُمَا يَرَى الْخَوْفَ فِي وَجْهِ الْآخَرِ. نَظَرَ أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ وَأَوْمَآ مُوَافِقَيْنِ عِنْدَمَا قَالَ جُنْدِيٌّ بِالْقُرْبِ مِنْهُمْا بِنَبْرَةٍ خَائِفَةٍ: «سَيَلْتَهِمُونَنَا!»

الفصل الثاني والعشرون

عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنَ الْحَقْلِ

حَدَّقَ هنري النَّظَرَ فِي الْأَرْضِ أَمَامَهُ، وَبَدَا لَهُ أَنَّ الْأَشْجَارَ تُخْفِي وَرَاءَهَا كُلَّ مَظَاهِرِ الْخَوْفِ وَالرُّعْبِ. لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَتَى بَدَأَتِ الْكَتِيبَةُ فِي الْقِتَالِ، لَكِنَّهُ رَأَى بِطَرْفِ عَيْنِهِ أَحَدَ الضُّبَّاطِ عَلَى جَوَادِهِ يَتَقَدَّمُ إِلَى الْأَمَامِ. فَجْأَةً شَعَرَ هنري بِحَرَكَةِ الْجُنُودِ، وَتَقَدَّمَتِ الْكَتِيبَةُ إِلَى الْأَمَامِ شَيْئًا فَشَيْئًا كَجِدَارٍ يَسْقُطُ أَرْضًا. ظَلَّ هنري وَقْتًا قَلِيلًا يَتَحَرَّكُ بِقُوَّةِ الدَّفْعِ قَبْلَ أَنْ يَسْتَوْعِبَ الْمَوْقِفَ. قَفَزَ وَبَدَأَ يَجْرِي يَائِسًا وَكَأَنَّهُ جُنْدِيٌّ فَقَدَ عَقْلَهُ.

جَاءَتْ صَيْحَاتُ الْعَدُوِّ وَطَلَقَاتُ النِّيرَانِ مِنْ بَيْنِ الْأَشْجَارِ. كَانَ الْجُنُودُ يَتَسَاقَطُونَ حَوْلَ هنري. وَسُرْعَانَ مَا وَصَلَتِ الْكَتِيبَةُ إِلَى مِنْطَقَةٍ خَالِيَةٍ مِنَ الْأَشْجَارِ حَيْثُ اسْتَطَاعَ هنري أَنْ يَرَى بِوُضُوحٍ أَكْبَرَ كُلَّ شَيْءٍ؛ كُلَّ وَرَقَةِ نَبَاتٍ، وَكُلَّ جِذْعِ شَجَرَةٍ بُنِّيٍّ، وَوُجُوهَ الْجُنُودِ بِنَظَرَاتِهِمُ الْمُحْدِقَةِ وَوُجُوهِهِمُ الَّتِي كَانَتْ تَتَصَبَّبُ عَرَقًا.

بَعْدَ الْجَرْيِ مَسَافَةً بَدَتْ وَكَأَنَّهَا أَمْيَالٌ، أَبْطَأَتِ الْكَتِيبَةُ ثُمَّ تَوَقَّفَتْ. وَعِنْدَهَا عَلَى الْفَوْرِ تَعَالَتْ أَصْوَاتُ النِّيرَانِ الْبَعِيدَةُ وَانْتَشَرَ الدُّخَانُ الْكَثِيفُ حَوْلَهُمْ.

اسْتَطَاعَ الْجُنُودُ بَعْدَ أَنْ تَوَقَّفُوا أَنْ يَرَوُا الرِّجَالَ الَّذِينَ سَقَطُوا قَتْلَى، أَوِ الْجَرْحَى الَّذِينَ كَانُوا يَتَأَلَّمُونَ. وَلِلَحْظَةٍ بَدَا الْجُنُودُ فِي حَالَةِ ذُهُولٍ غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَى الْحَرَكَةِ. كَانَ التَّوَقُّفُ غَرِيبًا وَالصَّمْتُ غَرِيبًا أَيْضًا. بَعْدَهَا صَاحَ الْمُلَازِمُ حَتَّى تَعَالَى صَوْتُهُ عَلَى كُلِّ الْأَصْوَاتِ الْأُخْرَى: «هَيَّا أَيُّهَا الْحَمْقَى! هَيَّا! لَا يُمْكِنُكُمُ الْبَقَاءُ هُنَا. وَاصِلُوا التَّحَرُّكَ!» وَزَادَ عَلَيْهِ كَلَامًا آخَرَ، لَكِنَّ مُعْظَمَهُ لَمْ يَكُنْ مَفْهُومًا.

حَدَّقَ الْجُنُودُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَصْرُخُ، وَأَخِيرًا قَفَزَ ويلسون إِلَى الْأَمَامِ وَنَزَلَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَأَطْلَقَ نِيرَانَ بُنْدُقِيَّتِهِ فِي الْغَابَةِ. بَدَا أَنَّ هَذَا أَفَاقَ الْجُنُودَ فَتَوَقَّفُوا عَنِ التَّجَمْهُرِ كَقَطِيعِ الْأَغْنَامِ. بَدَا أَنَّهُمْ تَذَكَّرُوا أَسْلِحَتَهُمْ، وَبَدَءُوا يُطْلِقُونَ النَّارَ فَجْأَةً. وَبِتَشْجِيعٍ مِنَ الضُّبَّاطِ، بَدَأَ الْجُنُودُ يَتَقَدَّمُونَ إِلَى الْأَمَامِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، يَتَوَقَّفُونَ كُلَّ بِضْعِ خُطُوَاتٍ لِيُطْلِقُوا النَّارَ وَيُعِيدُوا تَعْبِئَةَ أَسْلِحَتِهِمْ.

كَانَ الْعَدُوُّ يُقَاتِلُ بِضَرَاوَةٍ لِيَمْنَعَ الْكَتِيبَةَ مِنَ التَّقَدُّمِ، وَبَدَا أَنَّ الْكَتِيبَةَ لَا تَسْتَطِيعُ التَّقَدُّمَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا. انْحَنَى الرِّجَالُ خَلْفَ بَعْضِ الْأَشْجَارِ وَانْتَظَرُوا كَأَنَّ شَيْئًا يُهَدِّدُهُمْ. نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي ذُعْرٍ مَذْهُولِينَ مِمَّا فَعَلُوا. كَانَ الْمَوْقِفُ بِرُمَّتِهِ مُرْبِكًا لِلْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ.

وَمَا إِنْ تَوَقَّفُوا حَتَّى بَدَأَ الْمُلَازِمُ يَصْرُخُ فِيهِمْ مَرَّةً أُخْرَى. أَمْسَكَ بِذِرَاعِ هنري، وَصَاحَ: «هَيَّا أَيُّهَا الْأَحْمَقُ! سَوْفَ يُطْلِقُونَ النَّارَ عَلَيْنَا لَوْ بَقِينَا هُنَا. لَيْسَ أَمَامَنَا سِوَى عُبُورِ هَذَا الْحَقْلِ هُنَاكَ.»

أَشَارَ هنري قَائِلًا: «عُبُورُ هَذَا؟»

صَاحَ الضَّابِطُ: «نَعَمِ، اعْبُرُوا هَذَا الْحَقْلَ! لَا يُمْكِنُنَا الْبَقَاءُ هُنَا. هَيَّا!»

جَرَى الِاثْنَانِ مَعًا وَخَلْفَهُمَا ويلسون. وصَرَخَ الرِّجَالُ الثَّلَاثَةُ فِي الْجُنُودِ: «هَيَّا! هَيَّا!»

تَرَدَّدَ أَفْرَادُ الْكَتِيبَةِ هُنَيْهَةً، وَمَعَ إِحْدَى الصَّرَخَاتِ الطَّوِيلَةِ رَكَضُوا إِلَى الْأَمَامِ وَبَدَءُوا رِحْلَتَهُمُ الْجَدِيدَةَ، بَيْنَمَا تَحَرَّكَ عَدَدٌ قَلِيلٌ مِمَّنْ تَبَقَّى مِنَ الْكَتِيبَةِ قَرِيبًا مِنَ الْعَدُوِّ. زَادَتْ سُرْعَةُ إِطْلَاقِ النِّيرَانِ، وَانْتَشَرَتْ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ سَحَابَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الدُّخَانِ الْأَزْرَقِ.

أَسْرَعَ هنري نَحْوَ الْغَابَةِ قَبْلَ أَنْ تُصِيبَهُ إِحْدَى الطَّلَقَاتِ وَهُوَ يَخْفِضُ رَأْسَهُ وَيَكَادُ يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ. كَانَ الْمَشْهَدُ حَوْلَهُ غَيْرَ وَاضِحٍ.

شَعَرَ هنري وَهُوَ يَجْرِي بِشَغَفٍ وَوَلَعٍ حَزِينٍ بِالرَّايَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْهُ. لَقَدْ فَكَّرَ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنَّها جَمِيلَةٌ وَقَوِيَّةٌ. قَطْعًا لَنْ يُصِيبَهَا أَيُّ أَذًى. وَظَلَّ هنري عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ الرَّايَةِ وَكَأَنَّها قَادِرَةٌ عَلَى حِمَايَتِهِ.

وَوَسْطَ التَّدَافُعِ الْمَحْمُومِ، رَأَى هنري الْجُنْدِيَّ الَّذِي يَحْمِلُ الرَّايَةَ يَتَرَاجَعُ فَجْأَةً وَيَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ.

قَفَزَ هنري وَأَمْسَكَ بالسَّارِيَةِ. وَفِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ أَمْسَكَ ويلسون بالرَّايَةِ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ.

الفصل الثالث والعشرون

الرَّايَةُ

عِنْدَمَا الْتَفَتَ هنري وويلسون وَهُمَا يُمْسِكَانِ الرَّايَةَ معًا، وَجَدَا أَنَّ مُعْظَمَ أَفْرَادِ الْكَتِيبَةِ قَدْ لَقُوا حَتْفَهُمْ. لَيْسَ هَذَا فَحَسْبُ، بَلْ كَانَ النَّاجُونَ يَبْدَءُونَ فِي الِانْسِحَابِ أيضًا. كَانَ الْعَدِيدُ مِنَ الضُّبَّاطِ يُعْطُونَ الْأَوَامِرَ، وَيَصِيحُونَ وَسْطَ ضَجِيجِ الْمَعْرَكَةِ.

صَاحَ الْمُلَازِمُ: «مَاذَا تَفْعَلَانِ؟»

كَانَ هنري وويلسون يَتَشَاجَرَانِ عَلَى الرَّايَةِ، وَكِلَاهُمَا يُرِيدُ حَمْلَهَا. وَأَخِيرًا دَفَعَ هنري ويلسون بَعِيدًا.

عَادَتِ الْكَتِيبَةُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الأَشْجَارِ، وَعِنْدَمَا وَصَلُوا إِلَى الْمَكَانِ الْمَفْتُوحِ الَّذِي بَدَءُوا مِنْهُ بَدَا أَنَّ مَجْمُوعَاتٍ مِنْ جُنُودِ الْعَدُوِّ تُحِيطُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَتَمَلَّكَ الذُّهُولُ وَالْيَأْسُ الْكَثِيرِينَ.

وَاصَلَ هنري التَّقَدُّمَ تَعْلُو وَجْهَهُ نَظْرَةٌ غَاضِبَةٌ. كَانَ غَاضِبًا لِأَنَّ الضَّابِطَ قَالَ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَاكِبُو بِغَالٍ، وَكَانَ أَكْثَرَ غَضَبًا لِأَنَّهُمُ اضْطُرُّوا لِلانْسِحَابِ. شَعَرَ بِالْكَرَاهِيَةِ تِجَاهَ الضَّابِطِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ — حَتَّى — يَعْرِفُهُ، لَكِنَّهُ نَعَتَهُ بِذَلِكَ. أَرَادَ هنري أَنْ تنتصر كَتِيبَتُهُ في تِلْكَ الْمَوْقِعَةِ لِيَعُودَ إِلَى ذَلِكَ الضَّابِطِ وَيَقُولَ لَهُ: «نَحْنُ رَاكِبُو بِغَالٍ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟» لَكِنَّهُ الْآنَ يُدْرِكُ أَنَّ النَّصْرَ لَنْ يَكُونَ حَلِيفَهُمْ، وَأَنَّ عَلَيْهِ التَّخَلِّيَ عَنْ أَحْلَامِهِ بِالثَّأْرِ مِنَ الضَّابِطِ.

انْتَبَهَ هنري إِلَى كِبْرِيَائِهِ وَظَلَّ يَرْفَعُ الرَّايَةَ عَالِيًا. صَرَخَ هُوَ وَالْمُلَازِمُ فِي الْجُنُودِ لِيُوَاصِلُوا الْقِتَالَ، لَكِنَّ الْجُنُودَ كَانُوا أَشْبَهَ بِآلَاتٍ مُعَطَّلَةٍ. عَجَزَ الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ عَنْ مُوَاصَلَةِ الْقِتَالِ بَعْدَ أَنْ رَأَوْا زُمَلَاءَهُمْ يَسْقُطُونَ قَتْلَى وَجَرْحَى.

انْتَشَرَ الدُّخَانُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَمَعَ حُدُوثِ انْقِسَامٍ مُفَاجِئٍ فِي إِحْدَى السُّحُبِ، رَأَى هنري مَجْمُوعَةً مِنْ جُنُودِ الْعَدُوِّ. كَانُوا يَصِيحُونَ وَيُقَاتِلُونَ بَيْنَمَا كَتِيبَةُ هنري تَتَقَهْقَرُ.

بَدَتِ الْمَعْرَكَةُ وَكَأَنَّهَا سَتَسْتَمِرُّ إِلَى الْأَبَدِ. فَقَدَ الْكَثِيرُ مِنَ الْجُنُودِ صَوَابَهُمْ مِنْ هَوْلِ الْمَوْقِفِ، وَأَصْبَحُوا لَا يُمَيِّزُونَ مَكَانَ الْعَدُوِّ أَوْ مَصْدَرَ الطَّلَقَاتِ. كَانُوا يَفِرُّونَ فِي جَمِيعِ الِاتِّجَاهَاتِ بَحْثًا عَنْ مَكَانٍ لِلْهَرَبِ، وَأَثْنَاءَ هَذَا كُلِّهِ يَتَسَاقَطُ الْقَتْلَى مِنْ حَوْلِهِمْ.

سَارَ هنري بِخُطًى وَاثِقَةٍ وَسْطَ الْجُنُودِ، وَرَفَعَ الرَّايَةَ عَالِيًا. بَدَا وَكَأَنَّهُ تَوَقَّعَ أَنْ يَدْفَعَهُ أَحَدٌ أَرْضًا، فَكَانَ يَسْتَخْدِمُ الرَّايَةَ لِتُسَاعِدَهُ عَلَى الصُّمُودِ. وَمِنْ دُونِ أَنْ يَنْتَبِهَ، كَانَ وَاقِفًا كَالْأَبْطَالِ الَّذِينَ رَآهُمْ وَتَخَيَّلَهُمْ.

اقْتَرَبَ مِنْهُ ويلسون وَقَالَ: «أَعْتَقِدُ أَنَّهَا النِّهَايَةُ يَا هنري.»

رَدَّ هنري دُونَ أنْ يَنْظُرَ إِلَى صَدِيقِهِ: «اصْمُتْ أيُّهَا الْأَحْمَقُ!»

حَاوَلَ الضُّبَّاطُ تَوْزِيعَ الْجُنُودِ فِي دَائِرَةٍ حَتَّى يَسْتَطِيعُوا مُوَاجَهَةَ الْعَدُوِّ الَّذِي يَقْتَرِبُ. كَانَتِ الْأَرْضُ غَيْرَ مُسْتَوِيَةٍ وَمُشَقَّقَةً. وتَسَلَّلَ الْجُنُودُ دَاخِلَ الْخَنَادِقِ مُحَاوِلِينَ الِاخْتِبَاءَ خَلْفَ أيِّ شَيْءٍ قَدْ يَصُدُّ عَنْهُمُ الطَّلَقَاتِ.

رَأَى هنري أَنَّ الْمُلَازِمَ كَانَ وَاقِفًا الْآنَ فِي سُكُونٍ مُتَّكِئًا عَلَى سَيْفِهِ. وسَادَ شُعُورٌ غَرِيبٌ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ الْقَصِيرَةِ. بَدَا الْمُلَازِمُ كَالطِّفْلِ الَّذِي اسْتَنْزَفَ دُمُوعَهُ وَلَمْ يَعُدْ يَعْرِفُ مَاذَا يَفْعَلُ. كَانَ يُفَكِّرُ وَيُغَمْغِمُ لِنَفْسِهِ بِكَلَامٍ غَيْرِ مَفْهُومٍ.

تَصَاعَدَتْ بَعْضُ الْأَدْخِنَةِ حَوْلَ الْكَتِيبَةِ، بَيْنَمَا انْتَظَرَ الْجُنُودُ الْمُخْتَبِئُونَ مِنَ الطَّلَقَاتِ ارْتِفَاعَ الدُّخَانِ لِيَرَوْا لِآخِرِ مَرَّةٍ مَاذَا سَيَحْدُثُ لَهُمْ.

الفصل الرابع والعشرون

انْتِصَارٌ مُؤَقَّتٌ

فَجْأَةً قَطَعَ صَمْتَ الْجُنُودِ صَوْتُ الْمُلَازِمِ الْمُنْفَعِلِ عِنْدَمَا قَالَ: «هَا هُمْ قَادِمُونَ!» وَتَاهَتْ كَلِمَاتُهُ الْأُخْرَى وَسْطَ ضَجِيجِ الطَّلَقَاتِ.

نَظَرَ هنري إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الْمُلَازِمُ، وَرَأَى جُنُودَ الْعَدُوِّ يَقْتَرِبُونَ. كَانُوا قَرِيبِينَ جِدًّا، حَتَّى إِنَّهُ رَأَى وُجُوهَهُمْ وَزِيَّهُمُ الرَّمَادِيَّ الَّذِي بَدَا جَدِيدًا.

كَانَتْ قُوَّاتُ الْعَدُوِّ تَتَقَدَّمُ بِحَذَرٍ وَبَنَادِقُهُمْ مُسْتَعِدَّةٌ لِإِطْلَاقِ النِّيرَانِ. وعِنْدَمَا صَاحَ الْمُلَازِمُ، وَبَدَأَتْ كَتِيبَةُ هنري فِي إِطْلَاقِ النِّيرَانِ، بَدَا وَكَأَنَّ جُنُودَ الْعَدُوِّ بُوغِتُوا وَأُخِذُوا عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ.

تَبَادَلَ الْجَيْشَانِ الضَّرَبَاتِ، وَاسْتَمَرَّ الْقَصْفُ الْغَاضِبُ وَالسَّرِيعُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ. كَانَ الْجُنُودُ فِي كَتِيبَةِ هنري — بِزِيِّهِمُ الْأَزْرَقِ — مُتَلَهِّفِينَ لِلثَّأْرِ. تَوَارَى هنري بَعْضَ الْوَقْتِ. لَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ رُؤْيَةَ الْعَدُوِّ بِوُضُوحٍ، لَكِنْ بَدَا أَنْ هُنَاكَ الْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ يَتَقَدَّمُونَ إِلَى الْأَمَامِ شَيْئًا فَشَيْئًا. جَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ حَزِينًا وَالرَّايَةُ بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ.

وعِنْدَمَا لَاحَظَ هنري الْغَضَبَ الشَّدِيدَ الَّذِي يَجْتَاحُ أَصْدِقَاءَهُ، أَدْرَكَ أَنَّهُ إِذَا انْتَصَرَ الْعَدُوُّ حَقًّا، فَسَيَكُونُ ذَلِكَ نَصْرًا عَسِيرًا وَمُؤْلِمًا.

لَكِنْ بَدَأَتْ ضَرَبَاتُ الْعَدُوِّ تَضْعُفُ، وَتَضَاءَلَ عَدَدُ الطَّلَقَاتِ الْقَادِمَةِ مِنْ جِهَتِهِمْ. وَأَخِيرًا عِنْدَمَا تَوَقَّفَ الرِّجَالُ قَلِيلًا لِإِلْقَاءِ نَظْرَةٍ، لَمْ يَرَوْا سِوَى الدُّخَانِ الدَّاكِنِ يَمْلَأُ الْمَكَانَ. وَقَفَ الْجُنُودُ، وَحَدَّقُوا فِي الْخَلَاءِ حَوْلَهُمْ، فَرَأَوُا الأَرْضَ خَالِيَةً مِنْ جُنُودِ الْعَدُوِّ عَدَا جُثَثَ الْقَتْلَى.

عِنْدَ رُؤْيَةِ هَذَا الْمَشْهَدِ، انْطَلَقَ الْكَثِيرُ مِنَ الْجُنُودِ مِنْ مَخَابِئِهِمْ، وَرَقَصُوا رَقْصَةَ فَرَحٍ غَرِيبَةٍ. اتَّقَدَتْ عُيُونُهُمْ، وَانْطَلَقَ هُتَافٌ أَجَشُّ مِنْ بَيْنَ شِفَاهِهِمُ الْجَافَّةِ.

كَانُوا قَدْ أَوْشَكُوا أَنْ يُصَدِّقُوا أَنَّهُمْ بِلَا جَدْوَى، وَأَنَّهُمْ لَنْ يَصْمُدُوا أَمَامَ الْعَدُوِّ، لَكِنَّهُمْ عِنْدَمَا كَانُوا عَلَى وَشْكِ خَسَارَةِ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ الصَّغِيرَةِ، أَدْرَكُوا أَنَّ حَجْمَ الْجَيْشِ لَيْسَ مُهِمًّا. لَقَدْ ثَأَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَدُوِّ وَانْتَصَرُوا عَلَيْهِ.

نَظَرَ الْجُنُودُ حَوْلَهُمْ فِي تَفَاخُرٍ، وَشَعَرُوا بِالثِّقَةِ فِي أَسْلِحَتِهِمُ الْبَسِيطَةِ. لَقَدْ كَانُوا رِجَالًا بِحَقٍّ.

الفصل الخامس والعشرون

رَأْيُ الجِنْرَالِ

كَانَتِ الْأَرْضُ الْخَلَاءُ تُحِيطُ بِالْجُنُودِ، وَمِنْ بَعِيدٍ تَعَالَتِ الْعَدِيدُ مِنَ الْأَصْوَاتِ، لَكِنْ عَمَّ الْهُدُوءُ ذَلِكَ الْجُزْءَ مِنَ الْحَقْلِ. شَعَرُوا بِالْحُرِّيَّةِ، وَتَنَهَّدُوا تَنْهِيدَةَ ارْتِيَاحٍ، وَتَجَمَّعُوا لِلْعَوْدَةِ إِلَى صُفُوفِهِمْ حَيْثُ يُخَيِّمُ بَقِيَّةُ الْجَيْشِ.

فِي هَذَا الْجُزْءِ الْأَخِيرِ مِنْ رِحْلَتِهِمْ، بَدَأَتْ تَبْدُو عَلَى الرِّجَالِ انْفِعَالَاتٌ غَرِيبَةٌ؛ كَانُوا يَسِيرُونَ فِي عَجَلَةٍ وَقَلَقٍ، وَبَعْضُ الْجُنُودِ الَّذِينَ لَمْ يُظْهِرُوا شُعُورًا مُحَدَّدًا فِي خِضَمِّ الْقِتَالِ لَمْ يَسْتَطِيعُوا الْآنَ إِخْفَاءَ شُعُورِهِمْ بِالْقَلَقِ. رُبَّمَا كَانُوا يَخْشَوْنَ إِطْلَاقَ النِّيرَانِ عَلَيْهِمُ الْآنَ بَعْدَ أَنِ انْتَهَتِ الْمَعْرَكَةُ الرَّئِيسِيَّةُ وَأَصْبَحُوا قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى مِنَ الْأَمَانِ.

حِينَ اقْتَرَبَ هنري وَأَصْدِقَاؤُهُ مِنْ صُفُوفِ الْجَيْشِ، سَخِرَ مِنْهُمْ بَعْضُ الْجُنُودِ فِي كَتِيبَةٍ أُخْرَى أَثْنَاءَ مُرُورِهِمْ بِهِمْ.

صَاحَ أَحَدُهُمْ: «أَيْنَ كُنْتُمْ؟»

وَقَالَ آخَرُ: «لِمَاذَا لَمْ تَمْكُثُوا هُنَاكَ؟»

وَقَالَ ثَالِثٌ: «تَعُودُونَ لِلْبَيْتِ الْآنَ أَيُّهَا الصِّغَارُ؟»

لَمْ يَرُدَّ أَحَدٌ عَلَيْهِمْ بِاسْتِثْنَاءِ جُنْدِيٍّ وَاحِدٍ تَحَدَّاهُمْ لِلشِّجَارِ بِالْأَيْدِي، لَكِنَّ الْمُلَازِمَ حَالَ دُونَ ذَلِكَ. غَضِبَ هنري مِنْ تِلْكَ التَّعْلِيقَاتِ، وَرَأَى أَنَّ كَثِيرِينَ فِي كَتِيبَتِهِ كَانُوا يَسِيرُونَ فِي تَثَاقُلٍ مُفَاجِئٍ وَكَأَنَّهُمْ يَشْعُرُونَ بِالذَّنْبِ.

حِينَ وَصَلَ الْجُنُودُ إِلَى مَوْقِعِهِمُ الْقَدِيمِ، اسْتَدَارُوا وَأَلْقَوْا نَظْرَةً عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي دَارَ فِيهَا الْقِتَالُ. شَعَرَ هنري بِالدَّهْشَةِ؛ فَالْمِسَاحَةُ كَانَتْ صَغِيرَةً لِلْغَايَةِ. تَعَجَّبَ هنري مِنْ وُقُوعِ كُلِّ تِلْكَ الْأَحْدَاثِ عَلَى مِسَاحَةٍ صَغِيرَةٍ كَهَذِهِ، وَبَدَأَ يَشْعُرُ بِالْفَخْرِ عَنْ أَدَائِهِ فِي تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ الْأَخِيرَةِ.

أَثْنَاءَ اسْتِرَاحَةِ الْجُنُودِ، جَاءَ الضَّابِطُ الَّذِي كَانَ قَدْ أَطْلَقَ عَلَيْهِمْ رَاكِبِي الْبِغَالِ عَلَى جَوَادِهِ. كَانَ قَدْ فَقَدَ قُبَّعَتَهُ، وَتَفَرَّقَ شَعْرُهُ فِي غَيْرِ نِظَامٍ. كَانَ وَجْهُهُ مُتَجَهِّمًا مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ، وَبَدَأَ عَلَى الْفَوْرِ يَصِيحُ فِي الْجُنُودِ.

صَرَخَ فِيهِمْ: «مَا هَذَا الَّذِي فَعَلْتُمُوهُ؟ تَوَقَّفْتُمْ وَأَنْتُمْ عَلَى بُعْدِ مِائَةِ قَدَمٍ مِنْ تَحْقِيقِ انْتِصَارٍ سَاحِقٍ. لَوْ كُنْتُمْ قَدْ تَقَدَّمْتُمْ مِائَةَ قَدَمٍ فَقَطْ، لَكَانَ هُجُومُكُمْ سَاحِقًا.»

الْتَفَتَ الْجُنُودُ إِلَى قَائِدِهِمُ الَّذِي كَانَ عَلَى وَشْكِ الرَّدِّ. بَدَا وَكَأَنَّ الضَّابِطَ أَهَانَهُ، لَكِنْ تَغَيَّرَ أُسْلُوبَهُ عَلَى الْفَوْرِ، وَهَزَّ كَتِفَيْهِ.

قَالَ بِنَبْرَةٍ هَادِئَةٍ: «لَقَدْ فَعَلْنَا مَا فِي وُسْعِنَا يَا جِنْرَالُ.»

صَاحَ الضَّابِطُ: «مَا فِي وُسْعِكُمْ؟ لَمْ يَكُنْ هَذَا كَافِيًا، أَلَيْس كَذَلِكَ؟ كَانَ يُفْتَرَضُ بِكُمْ أَنْ تَلْفِتُوا انْتِبَاهَ الْعَدُوِّ، لَكِنَّكُمْ أَخْفَقْتُمْ تَمَامًا.»

ثم اسْتَدَارَ بِجَوَادِهِ، وَانْطَلَقَ بَعِيدًا. غَمْغَمَ قَائِدُ الْكَتِيبَةِ بِكَلِمَاتٍ غَاضِبَةٍ. ورَفَعَ الْمُلَازِمُ — الَّذِي كَانَ يَسْتَمِعُ لِحَدِيثِ الجِنْرَالِ فِي غَضَبٍ شَدِيدٍ — صَوْتَهُ، وَقَالَ: «أَيًّا كَانَتْ صِفَةُ الرَّجُلِ … سَوَاءٌ أَكَانَ جِنْرَالًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؛ لَوْ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَانَ لَمْ يُبْلُوا بَلَاءً حَسَنًا، فَهُوَ أَحْمَقُ.»

الفصل السادس والعشرون

الجِنْرَالَات

انْتَشَرَتِ الْأَنْبَاءُ بَيْنَ الْجُنُودِ بِأَنَّ أَفْرَادَ الْكَتِيبَةِ نُعِتُوا بِالْفَشَلِ. أَكَّدَتْ كُلُّ الْكَتَائِبِ الْأُخْرَى أَنَّ الجِنْرَالَ قَدِ ارْتَكَبَ خَطَأً فَادِحًا. لَاحَظَ هنري أَنَّ أَصْدِقَاءَهُ بَدَوْا كَالْحَيَوَانَاتِ الْمُنْهَزِمَةِ. نَظَرَ ويلسون إِلَيْهِ، وَقَالَ: «أَتَسَاءَلُ مَاذَا يُرِيدُ مِنَّا. لَا بُدَّ أَنَّهُ يَظُنُّ أَنَّنَا ذَهَبْنَا هُنَاكَ نَلْعَبُ!»

وَمَعَ أَنَّ هنري كَانَ غَاضِبًا، فَإِنَّهُ قَرَّرَ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى هُدُوئِهِ.

قَالَ: «عَلَى الْأَرْجَحِ لَمْ يَرَ الجِنْرَالُ شَيْئًا مِنَ الْمَعْرَكَةِ. الْأَرْجَحُ أَنَّهُ شَعَرَ بِالْغَضَبِ، وَقَرَّرَ أَنَّنَا كُنَّا قَطِيعًا مِنَ الْغَنَمِ لِأَنَّنَا لَمْ نَفْعَلْ مَا أَرَادَهُ تَحْدِيدًا. إِنَّهُ سُوءُ حَظٍّ لَا أَكْثَرَ!»

رَدَّ صَدِيقَهُ وَقَدْ بَدَا أَنَّهُ يَشْعُرُ بِإِهَانَةٍ بَالِغَةٍ: «عَلَيَّ الْإِقْرَارُ بِذَلِكَ؛ لَا جَدْوَى مِنْ أَنْ تُحَارِبَ مِنْ أَجْلِ الْآخَرِينَ عِنْدَمَا يَكُونُ كُلُّ مَا تَفْعَلُهُ خَاطِئًا. أَكَادُ أَتَمَنَّى أَلَّا أُشَارِكَ فِي الْقِتَالِ الْمَرَّةَ الْقَادِمَةَ. دَعْهُمْ يَتَحَمَّلُوا الْمَسْئُولِيَّةَ وَيُقَابِلُوا الْعَدُوَّ وَحْدَهُمْ.»

عِنْدَهَا جَاءَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْجُنُودِ مُسْرِعِينَ.

صَاحَ أَحَدُهُمْ: «عَلَيْكَ أَنْ تَسْمَعَ هَذَا يَا فليمنج!»

سَأَلَ هنري: «أَسْمَعُ مَاذَا؟»

رَدَّ الْجُنْدِيُّ: «الْتَقَى قَائِدُ الْكَتِيبَةِ بِمُلَازِمِكَ فِي مَكَانٍ قَرِيبٍ مِنَّا، وَقَالَ: «مَنْ ذَلِكَ الْجُنْدِيُّ الَّذِي كَانَ يَحْمِلُ الرَّايَةَ؟» فَأَجَابَهُ الْمُلَازِمُ: «إِنَّهُ هنري فليمنج. إِنَّهُ فَتًى قَوِيٌّ»، هَكَذَا قَالَ بِالْحَرْفِ. ثُمَّ قَالَ الْقَائِدُ: «إِنَّهُ حَقًّا كَذَلِكَ. إِنَّهُ مُحَارِبٌ جَيِّدٌ. لَقَدْ ظَلَّ رَافِعًا الرَّايَةَ عَالِيًا عِنْدَ الْجَبْهَةِ. لَقَدْ رَأَيْتُهُ بِنَفْسِي. إِنَّهُ جُنْدِيٌّ شُجَاعٌ.» ثُمَّ قَالَ الْمُلَازِمُ: «مَعَكَ حَقٌّ. هُوَ وَصَدِيقُهُ ويلسون كَانَا فِي الْمُقَدِّمَةِ طِيلَةَ الْوَقْتِ.» ثُمَّ قَالَ الْقَائِدُ: «كِلَاهُمَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ جِنْرَالًا فِي الْجَيْشِ».»

تَوَرَّدَ وَجْهَا هنري وويلسون خَجَلًا لِسَمَاعِ تِلْكَ الْأَخْبَارِ، وَسُرْعَانَ مَا نَسِيَا الْكَثِيرَ مِنَ الْأُمُورِ. لَمْ يَعُودَا يَشْعُرَانِ بِالْإِحْبَاطِ، بَلْ كَانَا سَعِيدَيْنِ لِلْغَايَةِ. امْتَلَأَ قَلْبَاهُمَا بِمَشَاعِرِ الِامْتِنَانِ وَالْعِرْفَانِ لِلقَائِدِ وَالْمُلَازِمِ.

الفصل السابع والعشرون

الْهُجُومُ الثَّانِي

حِينَ بَدَأَتْ قُوَّاتُ الْعَدُوِّ هُجُومَهَا الثَّانِي مِنْ وَسْطِ الْغَابَةِ، كَانَ هنري أَكْثَرَ ثِقَةً بِنَفْسِهِ. كَانَ يَقِفُ شَامِخًا رَابِطَ الْجَأْشِ بَيْنَمَا يَتَوَارَى الْآخَرُونَ. رَاقَبَ هنري الْهُجُومَ الَّذِي بَدَأَ بِمُوَاجَهَةِ فَرِيقٍ مِنْ جَيْشِهِ كَانَ عَلَى جَانِبِ تَلٍّ قَرِيبٍ. وَفِي مَكَانٍ آخَرَ فِي الْحَقْلِ كَانَ هُنَاكَ قِتَالٌ عَنِيفٌ وَسَرِيعٌ بَيْنَ كَتِيبَتَيْنِ بَدَتَا وَكَأَنَّهُمَا تَتَجَاهَلَانِ الْمَعَارِكَ الْأُخْرَى الَّتِي تَدُورُ حَوْلَهُمَا.

وَفِي اتِّجَاهٍ آخَرَ رَأَى هنري مَجْمُوعَةً هَائِلَةً مِنَ الْجُنُودِ تَقْتَحِمُ الْغَابَةَ بِخُيُولِهَا. غَابَتْ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ عَنِ الْأَنْظَارِ، وَسُرْعَانَ مَا تَعَالَتْ أَصْوَاتُ الْقِتَالِ وَالْقَصْفِ. رَاقَبَ هنري الْمَعَارِكَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي اسْتَمَرَّتْ بَعْضَ الْوَقْتِ. تَقَاتَلَ الْجَيْشَانِ قِتَالًا ضَارِيًا، وَرَأَى هنري الرَّايَتَيْنِ تُرَفْرِفَانِ وَسْطَ الدُّخَانِ.

بَعْدَ قَلِيلٍ عَمَّ الْهُدُوءُ الْمَكَانَ مَرَّةً أُخْرَى. هُدُوءٌ جَعَلَ الْمَكَانَ أَشْبَهَ بِالْكَنِيسَةِ. وَفَجْأَةً انْطَلَقَتِ الطَّلَقَاتُ النَّارِيَّةُ مِنْ نَاحِيَةِ مُنْحَدَرٍ قَرِيبٍ، وَبَدَأَ صَوْتُ إِطْلَاقِ النِّيرَانِ دَاخِلَ الْغَابَةِ. زَادَتْ سُرْعَةُ إِطْلَاقِ النِّيرَانِ لِلْغَايَةِ حَتَّى أَصْبَحَ صَوْتُهَا لَا يُتَصَوَّرُ. ولَمْ يَسْتَطِعْ هنري سَمَاعَ شَيْءٍ آخَرَ.

كَانَ الْجُنُودُ يَنْدَفِعُونَ هُنَا وَهُنَاكَ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَنْظُرُون فِيهِ. فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَانَ رِجَالُ أَحَدِ الْجَيْشَيْنِ يَصْرُخُونَ وَيُهَلِّلُونَ، لَكِنْ بَعْدَ لَحْظَةٍ يُهَلِّلُ جُنُودُ الْجَيْشِ الْآخَرِ بِالْمِثْلِ تَمَامًا. كَانَتِ الصَّرَخَاتُ وَالْهُتَافَاتُ تَمْلَأُ الْأَرْجَاءَ.

تَقَدَّمَتْ كَتِيبَةُ هنري الصَّغِيرَةُ بِنَفْسِ الْحَمَاسِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ عِنْدَمَا حَانَ وَقْتُهُمْ. أَطْلَقَ الرِّجَالُ صَرْخَةَ غَضَبٍ وَأَلَمٍ عِنْدَمَا أَطْلَقَ الْعَدُوُّ النَّارَ عَلَيْهِم. كَانَ أَمَامَهُمْ حَاجِزٌ مِنَ الدُّخَانِ لَمْ يَرَوْا مِنْ خِلَالِهِ إِلَّا وَمَضَاتِ الْأَعْيِرَةِ النَّارِيَّةِ الْحَمْرَاءَ وَالصَّفْرَاءَ. وَسُرْعَانَ مَا اكْتَسَوا بِالْأَوْسَاخِ وَالسُّخَامِ.

اسْتَمَرَّ الْمُلَازِمُ يَصْرُخُ فِي الْجُنُودِ لِيُوَاصِلُوا الْقِتَالَ، بَيْنَمَا ظَلَّ هنري يَحْمِلُ الرَّايَةَ. حَاوَلَ أَنْ يَرَى كُلَّ مَا يَسْتَطِيعُ. كَانَ أَحْيَانًا يَنْتَفِضُ، وَأَحْيَانًا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ، بَلْ إِنَّهُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ حَتَّى إِنْ كَانَ يَتَنَفَّسُ أَمْ لَا. كَانَ مُنْشَغِلًا لِلْغَايَةِ بِمُرَاقَبَةِ الْمَعْرَكَةِ.

اقْتَرَبَ صَفٌّ كَبِيرٌ مِنْ صُفُوفِ الْعَدُوِّ مِنْ كَتِيبَةِ هنري؛ فَكَانَ يَسْهُلُ رُؤْيَتُهُمْ. كَانُوا طِوَالَ الْقَامَةِ نَحِيفِي الْأَجْسَامِ مُنْفَعِلِي الْوُجُوهِ يَتَحَرَّكُونَ بِخُطًى وَاسِعَةٍ. وَأَمَامَ هَذَا الْمَشْهَدِ، تَوَقَّفَتْ كَتِيبَةُ هنري لَحْظَةً قَبْلَ أَنْ يَبْدَءُوا إِطْلَاقَ النِّيرَانِ ثَانِيَةً قَبْلَ حَتَّى صُدُورِ الْأَوَامِرِ بِذَلِكَ. بَدَءُوا إِطْلَاقَ النِّيرَانِ مَا إِنِ انْتَبَهُوا إِلَى الْخَطَرِ الْمُحْدِقِ بِهِمْ.

لَكِنْ اَسْرَعَتْ قُوَّاتُ الْعَدُوِّ بِالِاخْتِبَاءِ خَلْفَ أَحَدِ الأَسْيِجَةِ، ثُمَّ بَدَءُوا إِطْلَاقَ النَّارِ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى كَتِيبَةِ هنري الَّتِي هَيَّأَتْ نَفْسَهَا لِمُوَاجَهَةٍ ضَارِيَةٍ. لَمَعَتْ أَسْنَانٌ بَيْضَاءُ مِنْ بَيْنِ الْوُجُوهِ الْمُتَّسِخَةِ. وكَثِيرًا مَا صَاحَ جُنُودُ الْعَدُوِّ وَحَاوَلُوا إِهَانَةَ الْكَتِيبَةِ، لَكِنَّهَا ظَلَّتْ صَامِتَةً. رُبَّمَا كَانُوا يَتَذَكَّرُونَ الْإِهَانَةَ الَّتِي وَجَّهَهَا الجِنْرَالُ لَهُمْ وَالَّتِي جَعَلَتْهُمُ أَشَدَّ بَأْسًا.

عَزَمَ هنري عَلَى أَلَّا يَتْرُكَ هَذَا الْمَكَانَ مَهْمَا حَدَثَ. كَانَ يُرِيدُ الثَّأْرَ مِنَ الضَّابِطِ الَّذِي نَعَتَهُمْ بِرَاكِبِي الْبِغَالِ وَبِالْفَاشِلِينَ. وَأَفْضَلُ انْتِقَامٍ فِي رَأْيِهِ أَنْ يَبْقَى فِي هَذَا الْمَكَانِ إِلَى أَنْ يَهْزِمَ الْعَدُوَّ. سَوْفَ يُثْبِتُ لِلْجَمِيعِ كَمْ هُوَ شُجَاعٌ.

أُصِيبَ أَفْرَادُ الْكَتِيبَةِ إِصَابَاتٍ بَالِغَةً، وَسَقَطَ الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ. زَحَفَ بَعْضُ الْجَرْحَى بَعِيدًا عَنْ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ، لَكِنْ بَقِيَ الْكَثِيرُونَ بِلَا حَرَاكٍ.

بَحَثَ هنري عَنْ ويلسون، وَوَجَدَهُ لَا يَزَالُ يُحَارِبُ. ولَمْ يُصَبِ الْمُلَازِمُ هُوَ الْآخَرُ بِسُوءٍ. كَانَ يَصِيحُ فِي الْجُنُودِ، لَكِنَّ الْوَضْعَ سَارَ مُخْتَلِفًا الْآنَ. كَانَ مُعَدَّلُ الطَّلَقَاتِ يَتَضَاءَلُ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَكَانَ صَوْتُ الْمُلَازِمِ يَزْدَادُ وَهَنًا.

الفصل الثامن والعشرون

الْجَانِبُ الْآخَرُ مِنَ السُّورِ

أَتَى قَائِدُ الْكَتِيبَةِ مُسْرِعًا مِنَ الْخَلْفِ يَتْبَعُهُ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الضُّبَّاطِ.

صَاحُوا: «لَا بُدَّ أَنْ نَهْجُمَ عَلَيهِمْ! لَا بُدَّ أَنْ نَهْجُمَ عَلَيهِمْ!»

عِنْدَمَا سَمِعَ هنري ذَلِكَ، بَدَأَ يَدْرُسُ الْمَسَافَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ. أَدْرَكَ أَنَّ عَلَى كَتِيبَتِهِ التَّحَرُّكَ إِلَى الْأَمَامِ إِذَا أَرَادُوا تَحْقِيقَ النَّصْرِ. سَوْفَ يَلْقَوْنَ حَتْفَهُمْ إِذَا بَقُوا فِي أَمَاكِنِهِمْ. أَمَلُهُمُ الْوَحِيدُ أَنْ يَدْفَعُوا الْعَدُوَّ بَعِيدًا عَنِ السِّيَاجِ الَّذِي يَخْتَبِئُ وَرَاءَهُ.

ظَنَّ أَنَّ رِفَاقَهُ سَيَكُونُونَ مُنْهَكِينَ لِلْغَايَةِ لَا يَقْوَوْنَ على شَنِّ الْهُجُومِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ تَشْجِيعِهِمْ، لَكِنْ عِنْدَمَا الْتَفَتَ لِيَنْظُرَ إِلَيهِمْ، أَدْهَشَهُ أَنَّهُ قَدِ ارْتَسَمَتْ عَلَى وُجُوهِهِمْ جَمِيعًا تَعْبِيرَاتٌ أَكِيدَةٌ وَسَرِيعَةٌ بِالْمُوَافَقَةِ. وعِنْدَمَا صَدَرَ الْأَمْرُ، تَقَدَّمَ الْجُنُودُ إِلَى الْأَمَامِ بِخُطًى مُتَحَمِّسَةٍ. كَانَتْ هُنَاكَ قُوَّةٌ جَدِيدَةٌ وَغَيْرُ مُتَوَقَّعَةٍ فِي حَرَكَتِهِمْ. كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُرْهَقُونَ، وَأَنَّ طَاقَةَ هَذَا الْهُجُومِ تُشْبِهُ الْقُوَّةَ الَّتِي تَظْهَرُ قَبْلَ النِّهَايَةِ مُبَاشَرَةً. رَكَضَ الْجُنُودُ بِحَمَاسٍ جُنُونِيٍّ. كَانَ انْدِفَاعًا أَعْمَى فَوْقَ حَقْلٍ أَخْضَرَ، وَتَحْتَ السَّمَاءِ الزَّرْقَاءِ فِي اتِّجَاهِ السِّيَاجِ الَّذِي يَظْهَرُ بِصُعُوبَةٍ وَسْطَ الدُّخَانِ. وخَلْفَ السِّيَاجِ، كَانَ جُنُودُ الْعَدُوِّ يُصَوِّبُونَ نَحْوَهُمْ مُبَاشَرَةً.

ظَلَّ هنري رَافِعًا الرَّايَةَ فِي الْمُقَدِّمَةِ يُلَوِّحُ بِيَدِهِ الْخَالِيَةِ وَيَصِيحُ. كَانَ يُحَاوِلُ إِثَارَةَ حَمَاسِ أَصْدِقَائِهِ، لَكِنْ بَدَا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي حَاجَةٍ لِذَلِكَ. كَانَ الرِّجَالُ يَتَفَجَّرُونَ حَمَاسًا.

شَعَرَ هنري هُوَ الْآخَرُ بِالْجُرْأَةِ، وَكَانَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِتَقْدِيمِ التَّضْحِيَاتِ مَهْمَا كَلَّفَتْهُ. لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ وَقْتٌ لِلتَّفْكِيرِ، لَكِنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّ طَلَقَاتِ الْعَدُوِّ هِيَ الْحَاجِزُ الْوَحِيدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بُلُوغِ غَايَتِهِ.

الفصل التاسع والعشرون

انْتِزَاعُ الرَّايَةِ

انْدَفَعَ هنري إِلَى الْأَمَامِ بِكُلِّ مَا لَدَيْهِ مِنْ قُوَّةٍ. لَمْ يَسْتَطِعْ رُؤْيَةَ أَيِّ شَيْءٍ سِوَى الدُّخَانِ، لَكِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ بِوُجُودِ سِيَاجٍ قَدِيمٍ هُنَاكَ. لَا بُدَّ أَنَّهُ كَانَ مِلْكًا لِأَحَدِ الْمُزَارِعِينَ فِي السَّابِقِ، لَكِنَّهُ الْآنَ أَصْبَحَ فِي يَدِ الْعَدُوِّ.

أَثْنَاءَ جَرْيِ هنري، لَمَعَتْ فِي ذِهْنِهِ فِكْرَةُ اللِّقَاءِ الْأَخِيرِ بَيْنَ جَيْشِهِ وَجَيْشِ الْعَدُوِّ، وَتَوَقَّعَ أَنْ تَكُونَ مُوَاجَهَةً شَرِسَةً، وَهُوَ مَا جَعَلَهُ يُسْرِعُ فِي الْعَدْوِ عَنْ أَصْدِقَائِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَهْتِفُونَ فِي قُوَّةٍ وَحَمَاسٍ.

لَكِنْ سُرْعَانَ مَا رَأَى هنري أَنَّ عَدَدًا كَبِيرًا مِنْ جُنُودِ الْعَدُوِّ لَنْ يَصْمُدُوا لِلْقِتَالِ. ومَعَ انْقِشَاعِ الدُّخَانِ، رَأَى هنري جُنُودَ الْعَدُوِّ يَلُوذُونَ بِالْفِرَارِ. كَانَ بَعْضُهُمْ يَلْتَفِتُونَ لِيُطْلِقُوا النَّارَ عَلَى كَتِيبَةِ هنري قَبْلَ أَنْ يُوَاصِلُوا فِرَارَهُمْ.

لَكِنْ فِي بُقْعَةٍ مُحَدَّدَةٍ بَيْنَ صُفُوفِ الْعَدُوِّ، كَانَتْ هُنَاكَ مَجْمُوعَةٌ مُتَجَهِّمَةٌ وَحَازِمَةٌ لَمْ تَتَحَرَّكْ مِنْ مَكَانِهَا. كَانُوا ثَابِتِينَ فِي أَمَاكِنِهِمْ خَلْفَ السِّيَاجِ تُرَفْرِفُ فَوْقَهُمْ رَايَةٌ مُتَمَوِّجَةٌ جَامِحَةٌ.

اقْتَرَبَتْ كَتِيبَةُ هنري أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ حَتَّى الْتَقَى الْفَرِيقَانِ، وَأَصْبَحَتْ صَرَخَاتُهُمَا إِهَانَاتٍ مُتَبَادَلَةً. كَادَتِ الْمَسَافَةُ بَيْنَهُمَا تَخْتَفِي تَمَامًا.

رَكَّزَ هنري نَظَرَهُ عَلَى رَايَةِ الْعَدُوِّ الَّتِي كَانَ يُرِيدُهَا أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ. انْقَضَّ عَلَيْهَا كَالْحِصَانِ الْجَامِحِ، وَكَانَتْ رَايَتُهُ تَتَأَرْجَحُ كُلَّمَا اقْتَرَبَ مِنْهَا.

فَجْأَةً تَوَقَّفَتْ كَتِيبَةُ هنري عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ، وَأَطْلَقُوا وَابِلًا مِنَ الرَّصَاصِ تَفَرَّقَ عَلَى إِثْرِهِ جُنُودُ الْعَدُوِّ، لَكِنَّهُمْ وَاصَلُوا الْقِتَالَ. أَطْلَقَتِ الْكَتِيبَةُ صَيْحَةً أُخْرَى ثُمَّ انْدَفَعُوا نَحْوَ الْعَدُوِّ.

رَأَى هنري بَعْضَ جُنُودِ الْعَدُوِّ يُقَاتِلُونَ حَتَّى النِّهَايَةِ وَأَحَدُهُمْ يَحْمِلُ الرَّايَةَ. كَانَ قِتَالًا مَهُولًا. اكْتَسَى وَجْهُ حَامِلِ الرَّايَةِ بِالْغَضَبِ وَتَشَبَّثَ بِهَا حَتَّى وَهُوَ يَتَعَثَّرُ وَيَسْقُطُ أَرْضًا. جِرَاحُهُ جَعَلَتِ الْأَمْرَ يَبْدُو وَكَأَنَّ كَائِنَاتٍ غَيْرَ مَرْئِيَّةٍ تَتَشَبَّثُ بِقَدَمَيْهِ وَتُعِيقُ تَحَرُّكَهُ. بَدَا قَلِقًا لِلْغَايَةِ عِنْدَمَا قَفَزَتْ كَتِيبَةُ هنري فَوْقَ السِّيَاجِ.

عَبَرَ ويلسون السِّيَاجَ، وَانْقَضَّ عَلَى الرَّايَةِ كَنَمِرٍ يَنْقَضُّ عَلَى فَرِيسَتِهِ. انْتَزَعَ ويلسون الرَّايَةَ وَلَوَّحَ بِهَا وَهُوَ يُطْلِقُ صَيْحَةَ انْفِعَالٍ بَيْنَمَا سَقَطَ حَامِلُ رَايَةِ العدو أَرْضًا.

أَطْلَقَتْ كَتِيبَةُ هنري عَاصِفَةً مِنَ الْهُتَافِ.

انْتَهَتْ مَعْرَكَةُ التَّلِ الصَّغِيرِ! أسِرَ أرْبَعَةٌ مِنْ جُنُودِ الْعَدُوِّ، وَاسْتُجْوِبُوا. أحَدُهُمْ كَانَ مُصَابًا فِي قَدَمِهِ، وَأَخَذَ يَكِيلُ الصَّرَخَاتِ واللَّعَنَاتِ لهنري وَأَصْدِقَائِهِ. الثَّانِي كَانَ صَغِيرًا وَتَكَلَّمَ بِهُدُوءٍ مَعَ أَصْدِقَاءِ هنري عَنْ أَحْدَاثِ الْمَعْرَكَةِ، بَيْنَمَا جَلَسَ الثَّالِثُ حَزِينًا لَا يَفْعَلُ شَيْئًا سِوَى تَوْجِيهِ عِبَارَاتٍ غَاضِبَةٍ لِلرِّجَالِ. أَمَّا السَّجِينُ الرَّابِعُ فَكَانَ صَامِتًا طِيلَةَ الْوَقْتِ، وَكَانَ يُشِيحُ بِنَظَرِهِ عَنِ الْآخَرِينَ. بَدَا أَنَّهُ يَشْعُرُ بِالْخِزْيِ الشَّدِيدِ.

بَعْدَ أَنِ احْتَفَلَ الْجُنُودُ طَوِيلًا، جَلَسُوا خَلْفَ السِّيَاجِ فِي الْجَانِبِ الْمُقَابِلِ لِلْجَانِبِ الَّذِي كَانَ يَتَّخِذُهُ جُنُودُ الْعَدُوِّ مِنْ قَبْلُ.

كَانَتْ هُنَاكَ بَعْضُ الْأَعْشَابِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي اسْتَرْخَى فَوْقَهَا هنري، وَتَقَدَّمَ نَحْوَهُ ويلسون مُفْعَمًا بِالْبَهْجَةِ وَالْفَخْرِ وَفِي يَدِهِ رَايَةُ الْعَدُوِّ. اسْتَلْقَى ويلسون بِجِوَارِهِ، وَهَنَّأَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ.

الفصل الثلاثون

بِدَايَةٌ جَدِيدَةٌ

بَدَأَتِ الْأَصْوَاتُ الصَّاخِبَةُ مِنْ حَوْلِهِمْ فِي الِانْخِفَاضِ، وَأَصْبَحَتْ لَا تُسْمَعُ إِلَّا عَلَى فَتَرَاتٍ مُتَبَاعِدَةٍ. ونَظَرَ هنري وويلسون حَوْلَهُمَا فَجْأَةً بَعْدَ أَنْ أَثَارَ هَذَا الْهُدُوءُ قَلَقَهُمَا، فلَاحَظَا بَعْضَ التَّغْيِيرَاتِ بَيْنَ الْكَتَائِبِ الَّتِي كَانَتْ تَسِيرُ هُنَا وَهُنَاكَ.

وَقَفَ هنري، وَقَالَ: «أَتَسَاءَلُ: مَاذَا يَجْرِي هُنَاكَ؟» بَدَا أَنَّهُ سَيَسْمَعُ ضَجِيجًا جَدِيدًا. وَضَعَ هنري يَدَهُ الْمُتَّسِخَةَ عَلَى عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ إِلَى الْحَقْلِ.

وَقَفَ ويلسون هُوَ الْآخَرُ وَحَدَّقَ النَّظَرَ.

قَالَ: «أَنَا مُتَأَكِّدٌ أَنَّنَا سَنُغَادِرُ هَذَا الْمَكَانَ، وَنَعُودُ ثَانِيَةً إِلَى النَّهْرِ.»

انْتَظَرَا وَرَاقَبَا، وَبَعْدَ قَلِيلٍ تَلَقَّتِ الْكَتِيبَةُ الْأَوَامِرَ بِالْعَوْدَةِ مِنْ حَيْثُ جَاءُوا. نَهَضَ الرِّجَالُ مِنْ عَلَى الْأَرْضِ وَبَسَطُوا أَيَادِيَهُمْ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ. سَبَّ أَحَدُ الْجُنُودِ وَهُوَ يَفْرُكُ عَيْنَيْهِ، وَتَذَمَّرَ الْجَمِيعُ. كَانَ اعْتِرَاضُهُمْ عَلَى تِلْكَ الْأَوَامِرِ كَاعْتِرَاضِهِمْ عَلَى الدُّخُولِ فِي مَعْرَكَةٍ جَدِيدَةٍ؛ إِذْ كَانُوا يَشْعُرُونَ بِالرَّاحَةِ فِي هَذَا الْمَكَانِ.

سَارَ الرِّجَالُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا عَبْرَ الْحَقْلِ فِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا يَعْدُونَ فِيهِ بِجُنُونٍ قَبْلَ قَلِيلٍ.

اسْتَمَرَّتِ الْكَتِيبَةُ فِي السَّيْرِ حَتَّى انْضَمَّتْ إِلَى بَقِيَّةِ الْجَيْشِ، وَأُعِيدَ تَشْكِيلُ الْكَتَائِبِ فِي صُفُوفٍ، وَوَاصَلُوا مَسِيرَتَهُمْ فِي الْغَابَةِ. شَاهَدُوا فِي طَرِيقِهِمْ بيتًا أَبْيَضَ أَمَامَهُ مَجْمُوعَاتٌ مِنْهُمْ يُطْلِقُونَ النَّارَ عَلَى عَدُوٍّ بَعِيدٍ.

عِنْدَ هَذِهِ النُّقْطَةِ انْعَطَفَ الْجُنُودُ مِنْ طَرِيقِ الْحَقْلِ، وَتَحَرَّكُوا فِي اتِّجَاهِ النَّهْرِ. وعِنْدَمَا انْتَبَهَ هنري إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا يَقْصِدُونَهُ، نَظَرَ خَلْفَهُ وَأَخَذَ نَفَسًا عَمِيقًا مَمْزُوجًا بِالرِّضَى، ثُمَّ وَكَزَ صَدِيقَهُ ويلسون، وَقَالَ: «نَحْنُ نُغَادِرُ سَاحَةَ الْقِتَالِ! لَقَدِ انْتَهَتِ الْمَعْرَكَةُ!»

نَظَرَ ويلسون خَلْفَهُ هُوَ الْآخَرُ، وَقَالَ فِي دَهْشَةٍ: «نَعَمْ، لَقَدِ انْتَهَتْ!»

قَضَى هنري بَعْضَ الْوَقْتِ لِيَتَكَيَّفَ مَعَ هَذَا التَّغْيِيرِ. صَفَا ذِهْنُهُ تَدْرِيجِيًّا، وَبَدَأَ يَسْتَوْعِبُ أَيْنَ كَانَ وَمَاذَا يَحْدُثُ. فَهِمَ أَنَّ الْحَرْبَ قَدِ انْتَهَتْ، وَأَنَّهُ كَانَ فِي أَرْضٍ تَمْلَؤُهَا مَعَارِكُ غَرِيبَةٌ، وَأَنَّهُ قَدْ عَادَ. أَدْرَكَ أَنَّهُ كَانَ فِي مَكَانٍ مَلِيءٍ بِالدِّمَاءِ وَمَشْحُونٍ بِمَشَاعِرِ الْغَضَبِ، وَأَنَّهُ نَجَا. أَوَّلُ شَيْءٍ خَطَرَ فِي بَالِهِ هُوَ أَنْ يَحْتَفِلَ.

لَاحِقًا بَدَأَ هنري يَتَمَعَّنُ فِي تَصَرُّفَاتِهِ مِنَ الإِخْفَاقَاتِ وَالإِنْجَازَاتِ. شَعَرَ بِالسَّعَادَةِ، وَلَمْ يَنْدَمْ عَلَى شَيْءٍ. لَمْ يُشَاهِدْهُ الآخَرُونَ إِلَّا فِي الْمَوَاقِفِ النَّبِيلَةِ. كَانَ سَعِيدًا بِتَذَكُّرِ هَذِهِ الأَشْيَاءِ، وَظَلَّ وَقْتًا طَوِيلًا يَسْتَرْجِعُهَا فِي خَيَالِهِ.

كَانَ يَرَى نَفْسَهُ جُنْدِيًّا كُفْئًا، وَتَذَكَّرَ فِي سَعَادَةٍ تَعْلِيقاتِ رِفَاقِهِ عَنْ مَدَى شَجَاعَتِهِ.

لَكِنْ عَاوَدَهُ شَبَحُ هُرُوبِهِ مِنَ الْمَعْرَكَةِ الأُولَى. كَانَ سَاخِطًا إِلَى حَدٍّ مَا بِشَأْنِ مَا حَدَثَ. وَلِلَحْظَةٍ انْتَابَهُ شُعُورٌ بِالْخَجَلِ وَالْخِزْيِ.

ثُمَّ عَاوَدَتْهُ ذِكْرَى الْجُنْدِيِّ ذِي الثِّيَابِ الرَّثَّةِ الَّذِي فَرَّ مِنْهُ فِي الْحَقْلِ. وَلِلَحْظَةٍ أَخَذَ يَتَصَبَّبُ عَرَقًا عِنْدَمَا فَكَّرَ أَنَّ الآخَرِينَ قَدْ يَعْرِفُونَ مَا فَعَلَ، فَأَطْلَقَ صَرْخَةَ أَلَمٍ.

الْتَفَتَ إِلَيْهِ ويلسون، وَسَأَلَهُ: «مَاذَا بِكَ يَا هنري؟»

لَمْ يَسْتَطِعْ هنري الرَّدَّ عَلَى صَدِيقِهِ، وَغَمْغَمَ لِنَفْسِهِ بِكَلِمَاتٍ غَيْرِ وَاضِحَةٍ.

وَأَثْنَاءَ سَيْرِهِ، سَيْطَرَتِ الطَّرِيقَةُ الَّتِي تَصَرَّفَ بِهَا عَلَى فِكْرِهِ، وَأَفْسَدَتْ عَلَيْهِ ذِكْرَيَاتِهِ الْجَمِيلَةَ. وَمَهْمَا حَاوَلَ أَنْ يُلْهِيَ نَفْسَهُ بِالتَّفْكِيرِ فِي شَيْءٍ آخَرَ، لَاحَقَهُ مَشْهَدُ الْجُنْدِيِّ ذِي الثِّيَابِ الرَّثَّةِ الَّذِي تَرَكَهُ وَحِيدًا فِي الْحَقْلِ. نَظَرَ هنري إِلَى أَصْدِقَائِهِ وَتَيَقَّنَ أَنَّهُمْ إِذَا نَظَرُوا إِلَيْهِ فَسَيَرَوْنَ نَظْرَةَ الذَّنْبِ فِي وَجْهِهِ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا يَبْتَعِدُونَ وَيَتَحَدَّثُونَ عَنِ النَّصْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي حَقَّقُوهُ فِي الْمَعْرَكَةِ الأَخِيرَةِ.

لِفَتْرَةٍ، شَغَلَتْهُ هَذِهِ الذِّكْرَى عَنْ كُلِّ مَظَاهِرِ الاحْتِفَالِ. لَقَدْ أَدْرَكَ خَطَأَهُ، وَخَافَ أَنْ يُرَافِقَهُ الشُّعُورُ بِالذَّنْبِ طِيلَةَ حَيَاتِهِ. تَجَنَّبَ الْحَدِيثَ مَعَ أَصْدِقَائِهِ وَتَفَادَى النَّظَرَ إِلَيْهِمْ.

لَكِنْ، شَيْئًا فَشَيْئًا اسْتَجْمَعَ هنري الْقُوَّةَ لِإِلْقَاءِ ذَلِكَ الْخَطَأِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَأَخِيرًا بَدَا أَنَّهُ يُفَكِّرُ بِأُسْلُوبٍ مُخْتَلِفٍ. تَذَكَّرَ أُسْلُوبَهُ وَمُعْتَقَدَاتِهِ قَبْلَ الْمَعْرَكَةِ، وَاكْتَشَفَ أَنَّهُ كَرِهَ هَذَا الأُسْلُوبَ.

وَمَعَ هَذَا الاكْتِشَافِ، اسْتَعَادَ ثِقَتَهُ بِنَفْسِهِ. لَقَدْ شَعَرَ أَنَّهُ أَصْبَحَ بِالْفِعْلِ رَجُلًا قَوِيًّا رَابِطَ الْجَأْشِ. عَلِمَ أَنَّهُ لَنْ يَنْسَحِبَ مِنْ أَيِّ مَعَارِكَ قَادِمَةٍ. كَانَ قَرِيبًا مِنَ الْمَوْتِ، وَاكْتَشَفَ فِي النِّهَايَةِ أَنَّهُ مَوْتٌ فَحَسْب.

وَهَكَذَا تَغَيَّرَتْ رُوحُهُ أَثْنَاءَ عَوْدَتِهِ مِنْ سَاحَةِ الدِّمَاءِ وَالْغَضَبِ. لَمْ يَعُدْ غَاضِبًا أَوْ خَائِفًا.

أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ، وَوَاصَلَ الْجُنُودُ مَسِيرَتَهُمْ وَسْطَ الأَرْضِ الْمُوحِلَةِ. بَدَا عَلَيْهِمُ الانْزِعَاجُ وَأَخَذُوا يُغَمْغِمُونَ بِكَلِمَاتٍ غَيْرِ مَفْهُومَةٍ، لَكِنَّ هنري ابْتَسَمَ؛ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّ الْعَالَمَ فِي انْتِظَارِهِ. لَقَدْ تَحَرَّرَ مِنْ مَخَاوِفِ الْحُرُوبِ! لَقَدِ انْتَهَى الْكَابُوسُ! كَانَ مِثْلَ حَيَوَانٍ يَفْزَعُ أَشَدَّ الْفَزَعِ مِنْ أَهْوَالِ الْحُرُوبِ وَأَخْطَارِهَا. نَظَرَ هنري حَوْلَهُ إِلَى السَّمَاءِ الْجَمِيلَةِ، وَالْمَرَاعِي النَّاضِرَةِ، وَالأَنْهَارِ الْبَارِدَةِ؛ حَيَاةٌ مِنَ السَّلَامِ الدَّائِمِ.

وَفَوْقَ النَّهْرِ، سَقَطَ شُعَاعُ شَمْسٍ ذَهَبِيٌّ مِنْ بَيْنِ السُّحُبِ المَطِيرَةِ.